الطبعة 2

رواية

تغريدة عشق

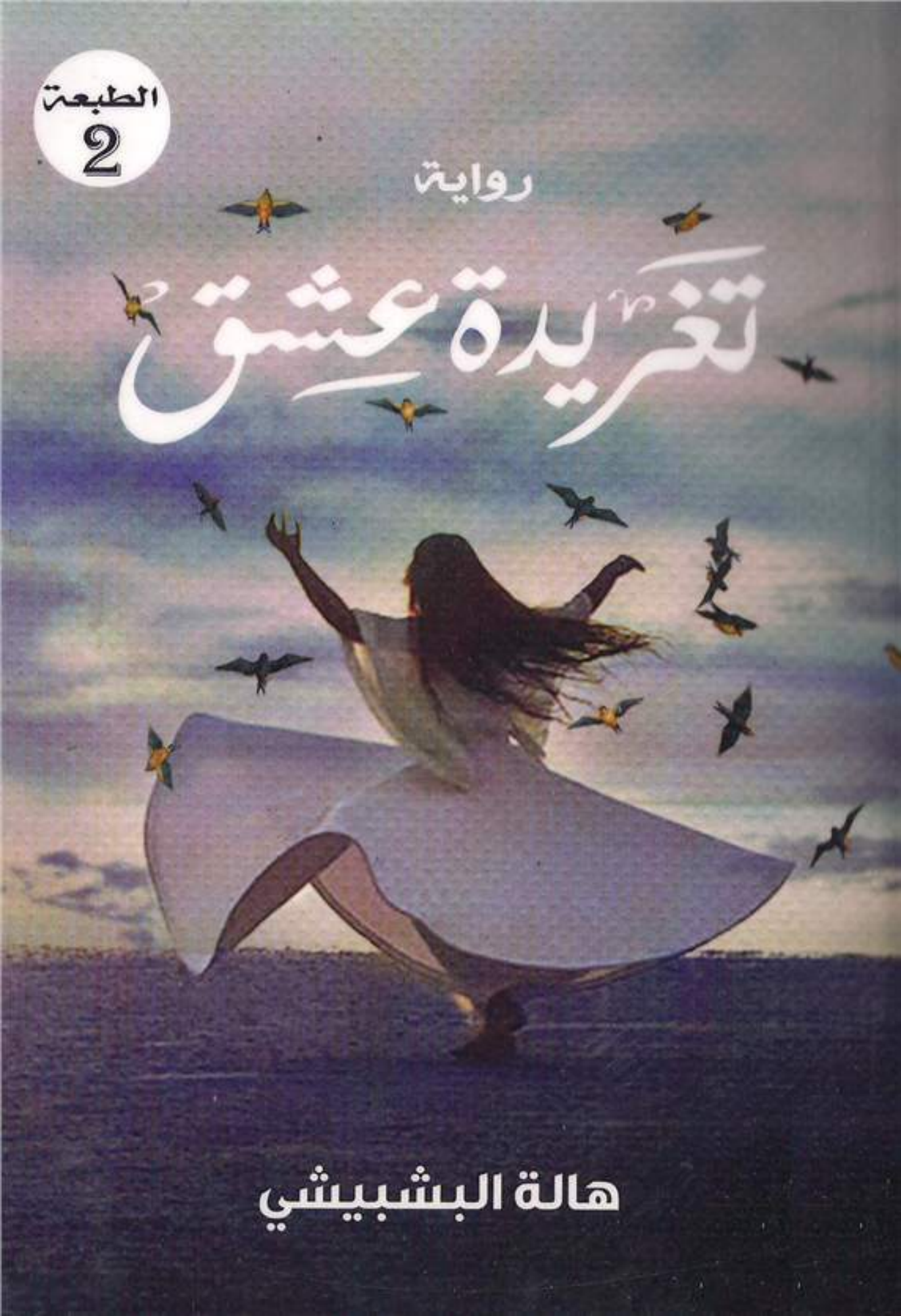

هالة البشبيشي

تغريدة عشق

رواية لـ

هالة البشبيشي

إهداء

تغريدة البدء

إلى أبي وأمي.. وددت لو أن أهديكما عمري.. ولن أوفيكما حبًا .

تغريدة حب

إلى أعز الولد (أنس، زينة، آسر)، إلى أولادي وكنز عمري "أحبكم"

تغريدة عمري بأكمله

إليك أنت فقط " د: محمودالسعيد "، دُمتَ لنا جميعًا .

المقدمة

وذات عشقٍ..
تلاقى الوجد والوصل
فانبعثت الآه مِلء الكون

هالة البشبيشي

من دون الحب..

كل الموسيقى ضجيج

كل الرقص جنون

كل العبادات عبء

" جلال الدين الرومي "

"حنيـن "

قررت أن أفصح عمًا بداخلي.. أن أطلق لنفسي العنان وأجعلها تتحرر مما جُبلت عليه لتبوح بمكنوناتها التي طالما قُيِدَت بمسميات ومعتقدات واهية بالية باسم المجتمع والعرف والتقاليد.. اليوم وبعد سنوات من التفكير والصراع بين الانصياع لقرارات الغير وبين أن أكون حُرَّة الرأي والفعل وأن أحدد لي طريقًا أختاره بكامل إرادتي ورضا نفسي.. قررت أن أتجاوز قيودي التي صُنعت لتكبيل حواء داخل حواء.. فهن مَن بإطار من الأنوثة كُبلنَّ وبتأييد من هُن.. كانت قيودهن .

نشأتي في حي العباسية أعتز بها وأجد فيها مايثري ذاكرتي ويروي حنيني لأيام ولَّت ولم يعد سوى عبق يملأ حواسي كلما جنحت الذكريات إليها وفاح عبير المراهقة والصبا منها.. في حيٍّ عريق له تاريخه على مَرّ الزمان ولا زال يحتفظ برونقه وأصالته.. كانت العباسية منطقة الكبراء والأثرياء قبل أن تتحول إلى منطقة للطبقة المتوسطة وفوق المتوسطة من موظفين وعُمَّال ممن جعل السعي وراء الرزق لهم ولأسرهم العباسية هي أرض ووطن.. كانت بكل صدق كدولة متكاملة الخدمات والمؤسسات.. بها من المدارس والمصالح الحكومية والمستشفيات والمجمّعات الاستهلاكية والمنتزهات ما جعلها منطقة حيوية تفي باحتياجات سُكَّانها.. كما كان من سكانها أسماء معروفة من الوسط السياسي والفني والأدبي لطالما سمعنا أجدادنا يتداولون أسماءهم فيما بينهم على سبيل الافتخار بأبناء حيهم: فمن العباسية كان

عبدالحكيم عامر ونجيب محفوظ وفؤاد المهندس ومحمد الموجي وغيرهم من فنانين وكُتَّاب..

تنوع وتعدد سكان العباسية من جميع المستويات والطبقات.. وتكوَّن عالمٌ له سماته ومذاقه الخاص فيما بين شارع ريدان وشارع الأمراء وشارع يَشبَك وما تميَّز به من فيلات وعمارات أنيقة فاخرة يسكنها أصحابها من ذوي السيارات الفارهة والخدم والتي كان يطلق عليها وقتئذ "العباسية الشرقية" وبين الوايلية وعرب المحمدي واللذين تميزا بسوق من أشهر أسواق العباسية وحتى الآن هما سوق الوايلية وسوق عرب المحمدي الذي كان يقام فيه احتفالات غنائية راقصة ويباع فيه كل صنوف البضائع كل يوم خميس .

لم أكن قد تعديت المرحلة الابتدائية وقتها.. كنت الابنة الوسطى بين أخٍ وأختٍ أصغر مني وأختين تكبرانني بسنوات منتظمة كأن أمي قنَّنَتْ وقت إنجابنا وحددته كل عامين بالتمام والكمال..

وبالرغم من أننا أربعة أخوات بنات وأخ ولد.. وبرغم تقارب أعمارنا جميعًا والذي جعلنا نبدو للغير كتوائم، اثنان اثنان، يفصلهما أخ صغير، إلا أنني كنت دائمًا أُفضِّل العزلة عنهم جميعًا.. فلا أقترن معهم بلعب أو نزهة خارج المنزل إلا نادرًا وأكون مضطره من قِبَل أبي أو أمي.. لم يكن قريبًا مني سوى أخي "عادل" الصغير، فكنت أعتبر نفسي أمه وأنه ابني برغم أن مايفصل عمرينا عن بعضهما لم يتعدَّ أصابع اليد إلا أنني كنت أمارس غريزة و رغبة الأنثى في الأمومة منذ الصغر معه..

كثيرًا ما كنت أدلِّله وألعب معه بألعابه وأقص عليه الحكايا التي كنت أحفظها عن ظهر قلب من حكايات جدتي لأمي -رحمة الله عليها-.. وبعض القصص التي كنت أدمنت قراءتها معظم ساعات اليوم في العطلات الدراسية وخلسة أيام الدراسة.. وأقول خلسه لما تعودت عليه من سرقة أجمل لحظات أحببتها لفعل ما أحببته: خشية غضب أمي عليَّ أو عقابها لي.. فقد كانت أمي لها من الشدة في التعامل معنا وقت الدراسة ما يجعلنا نلتفت حولنا خوفًا بل ورعبًا منها حتى أثناء النوم تحسُّبًا أن تكون تراقبنا ولا ترى الكتاب بين أيدينا اوأننا نلهو، ولو بمجرد الحديث خارج نطاق المذاكرة.. فكانت كلماتها لنا دومًا أننا حتى ننهي مرحلة الدراسة كلها لا ينفي لنا فعل أي شيء سوى المذاكرة كل ساعات اليوم وكل الأيام أيضًا.. حتى في العطلات الصيفية كان لها وقت لدروس التقوية التحضيرية لعام دراسي جديد مقبل .

شأننا شأن أي أسرة متوسطة الدخل تعتمد في دخلها على -الأب - عائلها الوحيد الذي يعمل لتوفير متطلبات الحياة لها في وقتنا.. كان حال أسرتنا فأبي يعمل بالتدريس الحكومي بمدرسة من كبريات المدارس وأعرقها وقتئذ بالعباسية - مدرسة الحسينية للبنين والتي كان اسمها "مدرسة فاروق الأول " وهي التي تخرَّج منها الزعيم الفلسطيني الراحل " ياسر عرفات "..

أبي هو "الأستاذ محمد أبو الفتوح" معلِّم اللغة العربية بل أفتخر بأن أقول إنه كان أفضل معلم للغة العربية ليس بالمدرسة فقط.. بل بالمنطقة التعليمية بأكملها وربما يكون بالنسبة لي.. منه تعلق قلبي

وأحببت اللغة العربية ومفرداتها والمحسنات البديعية من خلال ما كنت أسمعه منه من أبيات شعرية يلقيها أو يتغنى بها من آنٍ لآخر.. فقد كان إلقاؤه مميز النبرة والأداء، كنت أراهن إخوتى وصديقاتي على أنه أفضل من أي مذيع بالراديو ولو أنه أتيح له الغناء لأجلس عبدالحليم وعبدالوهاب بمنزليهما من فرط إقبال المستمعين عليه وتجاهلهما.. كنت أستعذب صوته وأداءه.. بسببه أحببت أبيات الشعر والأناشيد والموشحات وبخاصة الصوفية منها وماتتميز به من موسيقى داخلية للكلمات كنت أذوب طربًا بها.. أتعايش معها وكأنها تعزف لحنًا بآلات موسيقية من نور وأصوات من السماء تحملني معها طربًا ونشوة فوق السحاب.. كم أحببت سماع أشعار " الحلاج" منه.. لم أكن أدرك معناها وقتئذ ولكني كنت أرى ترنُّح أبي أثناء إلقائها بنشوة بالغة وابتسامة رضا أوحت لي بأنه يقول شيئًا محببًا وجميلًا.. فصارت أذني تعشق تلك الكلمات ورنينها دون أن أعرف معناها.. ولا زلت أتغنى بأبياتٍ منها حتى الآن وصدى صوت أبي ذو البحه المحببة الودودة لنفسي يحلِّق معها وكأنه آتٍ عبر الماضي في مراكب من فضة تسبح فوق نهر من أنهار الجنة لينعش روحي ويحييها في لحظات حضوره العطرة..

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت إلا و حبّك مقرون بأنفاسي ولا خلوتُ إلى قوم أحدِّثهم إلا و أنت حديثي بين جُلَّاسي ولا ذكرتك محزونًا و لا فَرِحا إلا و أنت بقلبي بين وسواسي..

شأن كل الأطفال بعمري وقتها.. كانت أيام الدراسة تمر عليَّ بطيئة ثقيلة مملة.. ما تلبث العطلة الأسبوعية أن تبدأ فتنتهي وكأن اليوم أصبح ساعة والساعة في الدراسة أيام، تظل أمنياتنا اليومية أن تنال مدرستنا من المصائب ما يجعلها تختفي فجأة من على وجه الأرض.. خاصة وأنا وإخوتي بمدارس حكومية تكتظ بالعشرات في الفصل الدراسي الواحد.. ومع ذلك كنت من المتميزات على مستوى المرحلة الابتدائية والتي كنت أدرس بها وقتها.. اشتراكي بمعظم الأنشطة المدرسية تقريبًا هو ما جعلني أتميز عن رفيقاتي وجعل لي حضورًا متميزًا بينهن دائمًا في أي مجال.. ترأست فريق الموسيقى والكورال والخطابة بالتأكيد إلى جانب الأنشطة الرياضية أيضًا.. والعجيب أني كنت متفوقة دراسيًا مع كل هذه الأنشطة ولم تكن لتعطلني عن الدراسة أو تأخيري في أيٍّ من المواد الدراسية.. مما كان يثير غيرة أختيّ الكبيرتين منّي؛ فوقت مذاكرتي لم يرقَ إلى نصف الوقت الذي كانتا تمضياه في المذاكرة لكن استيعابي أنا كان أسرع منهما.. وبالتالي محصلة الدرجات كانت تفوقهما وتسعد أبي جدًا.. وتثير غضب أمي عليهما وليس رضاها عني.. فالطبيعي أن نتفوق - على حدِّ قولها - لِمَ تسعد إذًا!

كنا ننتظر الصيف بحرارته التي كانت تشعل فينا وهج اللعب والسفر.. تنتهي الدراسة مع أوائل شهر مايو فنستقبل العطلة الصيفية.. نهرع جميعًا أبناء الحي الواحد إلى المسجد والكنيسة كل منا حسب عقيدته وديانته.. فالعباسية بها من المساجد ما يجعل في كل شارع مسجد أو زاوية، كما تشتهر أيضًا بوجود الكاتدرائية المرقسية العريقة بها وكم من

مرة حضرنا مع أمي وجيراننا احتفالات خاصة بالأعياد أو الزواج بها.. فلا أنسى أكليل "ميرفت " ابنة جارتنا "طنط جانيت".. وكم كانت جميلة الملامح بيضاء البشرة ممتلئة الجسم تبدو أكبر من عمرها لزيادة وزنها باستمرار حتى إن زوجها الذي كان يكبرها بأكثر من عشر سنوات لم يكن يظهر الفرق الزمني بينهما لضخامتها وضعف بنيته وقصر قامته بجوارها.. وأتذكر الهمسات والضحكات المكتومة التي تداولناها بنظراتنا بنات و وأولادِ الحي وقت أن كان قداس الزواج مقامًا و"ميرفت " تتأبط ذراع عريسها " صادق " ولم نكن نعلم من يتعلق بمن ؟! أهي من تخبئ خجلها وتورُّد خدودها به أم أنه هو من تضاءل حجمًا وانتفخ سعادة وحُبًا بها ولها؟ ومع ذلك فقد تحلت وأنارت وجهها ابتسامة بريئه تُنسي تفاصيل جسمها وتجذب من يراها بشدة لحلاوة ملامحها وسمات فرحتها المرتسمة على وجهها.. ناسيًا ما تحمله من كيلوات من الشحم على روحها الجميلة الطفولية وأذكر أن أمي كثيرًا ما كانت تندر بشموع عند نجاح أحدنا أو مرضه فكنت أسمعها تقول :

- دستة شمع يا تريزا.. دستة شمع يا أم هاشم لما ربنا ينجح ولادي .

لم نكن نفرّق إطلاقًا بين أعيادنا وأعياد جيراننا المسيحيين يومًا ما.. وأذكر أن شهر رمضان كان يسبقه إعدادات نلتزم بها جميعًا كان وقت دراسة أم عطلة كان لابد لنا من التواجد معًا للاحتفال به، نجتمع صبية وبنات كل حي بمباركة آبائهم ومعاونتهم المتمثلة في المشاركة الممزوجة بفرحة استقبال ضيف عزيز وغالٍ ما يلبث أن يأتي ليمر سريعًا بنسماته الحنونة الدافئة الروحانية للجميع.. فهاك أمهات تطهو النشا

بالماء لعمل مادة لاصقة عوضًا عن الغراء أو الصمغ لتوفير ثمنه وإن كان بسيطًا ولكن الأبسط منه والأمتع لنا هو عمله من خامات المنزل وبمساعده أمهاتنا أيضًا للصق وريقات المجلات والصحف التي قصصنها البنات بأشكال زخرفية مميزة كأعلام ورايات ليأخذها الصبية فيقومون بتجميعها ولصقها على أمتارٍ وامتارٍ من الخيوط القوية والتي نجتمع جميعنا كبار وصغار لمدّها بين شرفات البيوت فتبدو كحبل وصال ومحبة صُنِع بأيدينا فيزيد من رباطنا أهل و أصدقاء.. نتشارك الضحكة والبسمة واللقمة أيضًا.. فقد كانوا يصومون شهر رمضان معنا نهارًا فلا يتناولون أكلًا أمامنا بل وكان معظم الجيران يتشاركون في عمل وتناول الإفطار بعد أذان المغرب في بيت أحدنا: ففي أحد المنازل وليمة النساء والمقابل له وليمة الرجال وبالطبع كنا كأطفال بينهم هنا وهناك نمرح ونأكل ونلعب بفوانيس من صفيح وزجاج ملون.. ولهيب شمعات تحترق بداخله فتمتد لتسخن مقبضة الصفيح الممسك به ومن ثمَ تنال من أطراف أصابعنا لهيبها.. كنا نشعر بلسعاتها ونتألم في فرحة ونعاود الفعلة مرات ومرات وكأن هي لذة اللعب بالفانوس أن تحترق أطراف أصابعنا.. بإحساس واحد كنا نحيا.. إحساس العيلة الواحدة.. ولا أنسى حتى الآن صوت عم "سعيد" المسحراتي وهو ينادي للسحور مداعبًا سكان الحي..

- ياحاج محمد.. يا هاني.. يا عبدالسلام.. قوم وحد الله.

يا جرجس.. يا مرقص.. يا وليد.. قوم مجد سيدك السحور ياعباااااد الله .

كانت العطلة بالنسبة لنا كأطفال فترة الصباح والظهيرة موزَّعة بين الكنيسة للمسيحيين والمسجد للمسلمين على أن نلتقي جميعًا عصرًا لنلعب بساحة المنزل " الحوش" لنكون تحت أعين أهالينا وفي مأمن أيضًا..

كانت الكنيسة والمسجد في غير أوقات الصلاة هما بمثابة النادي المباح والمتاح لنا كأطفال وقتها، نحن بنو الطبقة المتوسطة وأبناء الموظفين والمدرّسين والمهندسين وغيرهم ممن لا يمتلكون من المال ما يوفر لهم عضوية أحد النوادي المعروفة أو حتى نصف المعروفة وبرغم إتاحة المدارس وقتها عمل النوادي الصيفية والتي كانت لمدة محددة إلا أننا كنا لا نحب الانضمام إليها.. فكيف نتمنى هدم وزوال المدرسة طوال العام ثم نأتي آخر العام لنقضي بها العُطلة أيضًا !!

فكانت دُور العبادة هي الملجأ لنا اللهم إذا أتيح للبعض الاشتراك بأحد مراكز الشباب شرط إجادة لعبة رياضية ما وربما التميُّز فيها.

.. وفيهما كانت جُمعتنا وسعادتنا وترفيهنا وتعليمنا أيضًا.. وما كان يحلو الصيف وعطلته إلا بقيامنا برحلاته الأسرية المميزة من خلال الرحلات الدورية التي كان ينظمها أهل الحي الواحد وتجمع كل السكان وأسرهم ليوم واحد وكانت غالبًا ما تنحصر بين القناطر الخيرية.. والحديقة اليابانيه بحلوان.. أو الأهرامات أو حديقة الحيوان بالجيزة.. ورحلة سنوية يتيمة صيفية إلى الإسكندرية أو رأس البر أو جمصة لا تتعدى اليوم الواحد تبدأ من فجر اليوم ذهابًا وتنتهي ليلًا نفس اليوم ولها من

الاستعداد قبلها بأيام ما يجعلها حُلمًا وذكرى وحكايات سمر ليالي الصيف كله، وربما العمر كله أيضًا.

*****

الشيخ " محفوظ "..

أول من علمني تلاوة القرآن.. كان مُحفِّظ القرآن بالمسجد القريب من منزلي - مسجد الجمعية الشرعية- تعلقت بذاك المسجد منذ طفولتي وقت كنا نذهب لصلاة التراويح برمضان مع أبي وأمي وجيراننا.. ولم نكن نُكمل التراويح لطول وقتها ولكن كنا نستمتع بتمثيل اداء كل الركعات وهمساتنا وحركاتنا إلى جوار أهالينا أثناء الصلاة حتى يسمحوا لنا بصحبتهم بعد ذلك إن وجدونا نكمل الصلاة دون تململ أو شكوى من طولها أو تعب أرجلنا من الوقفة.. فلم نكن نعي معنى الآيات فقط نعرف أن الصلاة هي شُكرٌ لله الذي وهبَ لنا بابا وماما والمال الذي منه نأكل ونشتري ألعابنا وملابسنا.. وما إن وصلت على أعتاب المراهقة إلا وكنت من أشهر مرتادي المسجد بالعطلات الصيفية والمناسبات الدينية.. كنت أتلهف للعطلات للاشتراك بالأنشطة الصيفية به فقد تنوعت بين الدراسي -التقوية الدراسية لمواد العام المقبل - والترفيهي.. وما يشمله من مسرحيات وأشغال فنية ومجلات حائطية وخطابة.. والديني وما يشمله من حفظ وتلاوة وتجويد القرآن والأحاديث النبوية وقشور مبسطة للعقيدة والفقه بما يتناسب مع أعمارنا وقتها.

أذكر أنني كنت محبوبة من الجميع بالمسجد ممن يدرسون لنا.. فقط كنت أخاف من أحدهم الأستاذ "صلاح" وهو شاب في نهاية العشرينات ولكن بالنسبة لي وقتها يكبرني بأكثر من ثلاثة عشر عاما فكنت أراه عملاقًا ضخمًا.. له من البنيان الجسدي ما يميزه ويجعله يبدو كبطل كمال أجسام.. لم أكن مبهورة به كشاب بل بالعكس كنت أخشاه جدًا وأخاف منه أيضًا؛ فكان له من الصرامة والشدة في المعاملة معنا ومن الصوت العالي ما يرعبني منه.. كم تصورت أنه يمكنه أن يمحوني من على وجه الأرض لو أنه فقط عاقبني بضربة من يده التي تميزت بكف كان لي بمثابة أيقونة الرعب.. لم أتخيل أن هناك كفًا أكبر من كف يد الأستاذ صلاح فما بالي لو عنَّفني مرة كما كان يعنِّف الأولاد الذكور ممن كانوا معي في المسجد.. ونال جسدي الضعيف من يده لطمه أو لكمه!! كنت أجتهد دومًا لأن أكون نشيطة ومستيقظة لكل كلمة منه أو درس يلقية علينا حتى أتحاشى العقاب.

العجيب كل العجب أن تلك الملامح الصارمة والمرعبة سرعان ما كانت تتلاشى و تتحول لبراءة وسماحه أثناء الأذان والصلاة !

كنت أرى وجهًا غير ما أراه قبلها بدقائق.. الخشوع والورع له علامات.. لم ولن أنساها على قسمات الأستاذ "صلاح".. حتى إنني لم أجزم وقتها :

هل يتحول من شرير إلى طيب وقت الأذان والصلاة؟ أم أن العكس هو الصحيح.. هو طيب ويتحول معنا أثناء الدرس إلى شرير ؟؟

فى أيّ من الحالات كان له من الهيبة والرهبة والخشوع والسماحة نصيبًا يكاد يكون متساويًا النسب تمامًا.. حتى إنني كثيرًا ما شردت بذهني المراهق وقتها في حال " ميس نادية" خطيبته أو ما كانوا يطلقون عليها - عروسته إن شاء الله -ألا تخافه؟ فيما يتحدثون؟ وهي كالعصفورة الوديعة وهو المتحول الذي أصبح لي أيقونة لكائن أسميتُه الوحش البريء!!

هل تحبه فعلًا؟ هل يحبها فعلًا؟ ما هو الحب الذي يجمعهما؟ بل ما هو الحب نفسه ؟

في النهاية كان يأخذني خيالي المراهق والطفولي أيضًا إلى مشهدهما وهي بالثوب الأبيض الطويل ومتعلقة بذارعه الضخم.. ولا أكثر من ذلك .

تعلق قلبي بالمسجد..

أصبح كل اهتمامي، حتى إنني خلال العطلة الصيفية كثيرًا ما كنت أتفق مع صديقاتي أن نذهب قبل موعد الدروس بوقتٍ كافٍ على أن تحضر كل منا من منزلها أدوات التنظيف التي تستطيع إعارتها من أمها لتحقيق غرض هذا اليوم.. من مساحيق أو سوائل تنظيف وتلميع وغيرها لنقوم بغسيل وتنظيف حوائط المسجد أو السلم المؤدي لقاعات الدروس و الأنشطة والمقاعد والطاولات بل وأيضًا الحمامات.. فقد حكى لنا ذات مرة الشيخ "محفوظ " عن مولانا الشعراوي أنه كان ينظف بنفسة حمامات المسجد كلما ظن نفسه أنه له من المكانة ماتميزه عن غيره.. فمن باب التواضع وذُل النفس وعدم التكبر كان

يفعل ذلك.. ولكنني اتخذته قدوة فيما كنت أستطيع فعله وقتها تقرُبًا لسيرة شيخ أحببته ولازلت أذكر سماحة ابتسامته ونور الإيمان على وجهه، ولم نكن نُخطر أحدًا بما سنفعل أو فعلنا حتى نفوز بالثواب كاملًا كما أخبرنا الشيخ محفوظ بأن الثواب يعظم أجره إن كان سرًا بين العبد وربه فقط .

كنا نذهب لصلاة الظهر مع المصلين ثم نختبئ بأماكن مختلفة من المسجد فقد كان عم " مهدي " يُسند إليه غلق أبواب قاعات المسجد حتى موعد الأنشطة والعيادات الخارجية لمستوصف المسجد بعد صلاة العصر.. فقررنا أن نعمل ما بين صلاة الظهر وصلاة العصرحتى لا يرانا.. فلو رآنا لعنَّفنا بشدة أو لضربنا بمعنى أوضح وبلَّغ عنا الشيخ الذي كان يتفنن في عقابٍ يليق بنا بدايته التذنيب طوال وقت الدرس وذروته حرماننا من حفلٍ ورحلة التفوق في نهاية الدورة الصيفية .

"عم مهدي"..

أحد أهم الأشخاص بالمسجد.. وأشهرهم بين أبناء الحي الواحد المحيطين بالمسجد.. هو رجل على مشارف الخمسين من عمره، عامل النظافة والغفير المقيم بالمسجد، كان متوسط القامة، نحيف البنية، أسمر البشرة سمرة أهل الصعيد بمصر، تغطي عينه اليسرى سحابة بيضاء واضحة كانت سببًا في تسميته وقتها من قِبَل الأولاد المشاغبين باسم : "مهدي الأعور"

يمتلك ابتسامة لا أنساها، تظهر السِنَّة الوحيدة التي احتفظ بها خلسة من فمه ومن الزمن أيضًا على جانب فمه جهة اليمين.. ومع ذلك كنت أحب تلك الابتسامة جدًا كانت تُشرِق وجهه الذي كان يصعب في الغالب على من يراه أن يحدد ملامحه المختبئة وسط تجاعيد رسمت خطوط حياته ومعاناته بدقة ولم تستطع أن تخفي ابتسامته التي بها يتحدى ملامح القسوة التي تركت آثارها على وجهه وبنيته ولم تتمكن من روحه فظلت روح طفل داخل جسد كهل.. ويقال إنه أقام واحتمى بالمسجد بعد أن كان يمكث به طوال النهار والليل في أوقات الصلاة وغير أوقات الصلاة منذ سنوات بعد أن أتى من الصعيد وأشهر إسلامه بمصر وأصبح اسمه " المهدي" بنور الإسلام .

لم يتزوج مهدي قبل مجيئة إلى مصر وبالطبع ولا بعد مجيئه مع مستجدات حياته تلك والتي طرأت عليه بعد أن شارف على الخمسين من عمره فقد وهبَ حياته لخدمة المسجد أو على الأقل هذا ما عرفته وقتها وأصبح صديقًا للكل دون أن يستدر عطفهم فقط كان ما يهمه هو أن ينال منهم إحساس الأسرة والعائلة التي افتقدها وتركها خلفه بالصعيد.. الكل يعطفون عليه ويسعدون بالسمر معه وسماع حكاياته عن الصعيد والعفاريت والأشباح والتي كان في كل حكاية يتعمد أثناء سرده لها أن يعلو صوته وينخفض أكثر من مرة حتى يجذب انتباه المستمعين له ويجعل له حضورًا مميزًا بينهم.. كان محبوبًا للجميع لطيبته وسذاجته أحيانًا .

اعتدت أن أحضر له من المنزل من الطعام ما أستطيع أن أحمله له بعِلم أمي.. فقد كانت أمي برغم شدتها معنا وتعنيفها المستمر لنا كما كانت تقول دائمًا :

" البنات عاوزة الشدة في الربايا.. اكسر للبنت ضلع يطلع لها اربعة وعشرين ".

كانت سيدة خيّرة مُحِبة للناس ولفعل الخير تسعى لأخذ الثواب والتصدق بكل " قديم " بالمنزل أو مستهلك.. ربما لو كان الأمر وقتها يلزمه الجديد لفكّرت بالأمر مليًا .

" غـربة "

في نهاية تلك العطلة كان الحدث الأكبر في حياتنا كأسرة.. الحدث الذي غيَّر مجرى حياتنا جميعًا وحياتي أنا بشكلٍ خاص.. الحدث الذي كانت أمي تنتظره منذ سنوات.. وكم دعت الله أن يتحقق لتتحقق معه أحلامها وأمانيها.. جاء دور أبي في الإعارة.. كانت الفرحة عارمة وقتها.. فرحة ارتسمت على وجه أمي بشكل لم أرَه قبلها ولا بعدها إلا قليلًا.. فقد كانت طوق النجاة من تكاليف الحياة وتفكيرها الدائم في تعليم الأولاد و زواج البنات وتجهيز البنات على الرغم من أن أكبرنا كانت لم تزل بالمرحلة الإعدادية.. يومها جاء أبي يزف البشرى مسرعًا مطرقًا الباب بطرقات كادت تخلعه من مكانه رقصًا وطربًا.. كانت طرقاته تنم عمَّا يرتسم على ملامحه دون أن نراه.. ومالبثت أمي أن فتحت الباب حتى احتضنها أبي وكاد يحملها من على الأرض ويحلق بها.. بصوت راقص باغت أمي قائلًا :

- مش قلت لك هاتفرج يا " خديجة ".. عشان ما تفضليش حاملة هم البنات والعيال طول عمرك.. قلت لك ربنا هو صاحب الأمر والرزق بإيده هو ماليش فيه إيد ولا حيلة وهو مش ها يحوجنا أبدًا طول ما رميين تُوكلنا عليه .

-خير يا ابوعادل فرَّحني ياخويا إيه اللي حصل ؟

- دوري في الإعارة جه يا خدوجة.. عشان بس ماتفقديش الأمل وتبطلّي قلق بقى.

- وانا يعني اعترضت، أنا بس غصب عني مابقدرش ابطل قلق علي العيال وانا شايفاك وانت مموّت نفسك في الشغل ليل نهار عشان توفر لنا العيشة.. وأهو الحمد لله ربنا فرجها.

يعني انت هاتسافر؟

إلا احنا هانسافر معاك ؟؟

ولا هاتسيبنا هنا زي جارنا ابو خالد ؟

" قالتها بصوت متدرج في الانخفاض إلى أن وصل للهمس مع نبرة استعطاف وحزن خبيث مُراد به الإجابة المتوقعة فورًا "

- ده كلاااااااام يا خدوجة بردو.. ابوخالد ده بيعبد القرش والعياذ بالله.. أنا بردو استغنى عنك ولّا عن العيال ده انتوا روحي.. واللي كان مقضينا هنا يقضينا هناك وزيادة ويفيض ببركه ربنا إن شاء الله..

*****

مرت أيام العطلة هذه السنة بسرعة جدًا.. أيام تلتها أيام في ترتيبات السفر وتخليص الأوراق الحكومية والكشف الطبي والفحوصات الصحية لنا جميعًا وتجهيز بعض الملابس والإعدادات الخاصة ببلدٍ نذهب إليها لأول مرة ولا نعرف ظروف الحياة بها.. فأعدت أمي من كل شيء القليل ملابس وأدوية وأغراض لا أعلم حتى اليوم ما سبب كل الحقائب التي حملناها معنا وقت سفرنا وماتحويه .

أمي كانت تعلل ذلك بأنه على سبيل لو احتجناه وجدنا ما يفي بحاجتنا منه وقتها.. مما تطلب منها أن تبيع مقابل ذلك لسداد تكاليف ومتطلبات السفر أسورتها الوحيدة والتي كانت على شكل ثعبان له عينان من فصوص حمراء كانت تحتفظ بها داخل علبة من داخل كيس قطيفة نبيتي اللون وقد نُحِلَ وبره بعُمر قِدَمه وسنة شرائها تحديدًا.. فهي تعلم بالتأكيد أن أبي سيعوضها بدلًا عنها اثنتين وربما ثلاث.. وربما تمتلىء يداها بالذهب وصدرها قد يزدان بكردان أو حتى عقد من ذهب كجارتنا أم خالد.. بيد أنها لن تكون مغفلة مثلها وتترك أبي يسافر بمفرده مثل أبو خالد ليعود بعد سنوات بعروسة أصغر منها.. فعلى حد قول أمي :

- رِجلي على رِجلك فين ماتروح.. ولا يفرّقنا إلا القبر.

فيسارعها أبي بالرد :

- يجعل يومي قبل يومك يا خديجة.. ماتقوليش كده.

أشهر لم تزيد عن مدة العطلة الدراسية انقضت وأغلقنا شقتنا بالعباسية تاركين مفتاحها لعمتي "نجاة " اخت أبي التي كانت تقطن بشارعٍ بحي الظاهر.. على بُعد محطات قليلة من بيتنا..

ولا أنسى أبدًا ذكريات ومواقف أول مرة ركبنا فيها الطائرة.. كانت أشبه برحلة رعب لأبي وأمي وهما من كانا يظهران لنا أن الأمر عادي.. على الرغم من أنه كان لنا أشبه بركوب عربات الملاهي أو الطائرات التي كنا

نركبها بالمراجيح أثناء الأعياد.. إلا إني لا أنكر لحظات التوتر والإثارة والضحكات الصفراء المشوبة بخوف بيني وبين إخواتي لن ننسى تلك اللحظات التي اعترتنا أثناء إقلاع وهبوط الطائرة تلك المرة .

وصلنا إلى البلد التي تم إعارة أبي إليها.. وكما هو معروف عن دول الخليج في شهر سبتمبر تعلو الرطوبة وترتفع درجة الحرارة فيصبح الجو العام شِبه مختنق خاصة وإن كان نصيبنا في مكان التوزيع حسب الاحتياج لتخصص أبي هو منطقة جبلية تحيطها الجبال من كل جانب، تلمَّسنا الفرق الشاسع بين مصر وما أتينا إليه، فطوال الطريق إلى ما كُتِب لنا أن نُقيم به لم نرَ محلًا تجاريًا أو مطعمًا واحدًا أو خيالًا لإنسان يمشي بالشارع وكأن كل أهل البلده داخل سيارات أو حافلات للنقل الجماعي.. و كما قال أبي :

- التوزيع رمانا ورا الشمس .. جبل ورانا وقدامنا.. يالا بقى أهي مدة وتعدي وطالما احنا مع بعض كلنا أي مكان هايبقى جنة بينا .

لم يكن انتقالنا من مكان وبيئة مختلفة عنا بالسهل عليَّ فالاختلاف كان شاسعًا في كل شيء حتى في طبيعة الجو العام والمناخ.. كل شيء مختلف عن مصر.. اللون الأصفر والبني والترابي يسود المشهد.. طبيعة الجبال وقسوتها نالت من طبيعة البشر هناك.. بدأت تتجلى لنا منذ اللحظة الأولى من أول ما تعارفنا على أصحاب البناية التي وقع عليها الاختيار للسكن بها وملاءمتها لنا موقعًا ومساحةً وسعرًا أيضًا.. كان كل شيء بمقابل.. الكل يعرف أنها مرحلة وتمر على الطرفين -أهل البلد

والمغتربون بها - فالأشطر هو من ينتفع من الآخر قدر انتفاعه منه وأكثر إن أمكنه ذلك.. فصاحب البيت عرف أن أبي معلم اللغة العربية بالمدرسة التي يدرس بها أبناؤه فكان أول اتفاقه وقبل توقيع عقد السكن هو أن يتابع أبي أولاده دراسيًا.. ولو استطاع أن يطلب منه أن يدرِّس لهم كل المواد ما تراجع عن طلبه ذلك .

غربتنا ببلدٍ عُرِفَ بطبيعته كمجتمع مغلق يتميز ببتروله وذهبه جعلت كل من آتى إليه مثار حسد من ذويه.. فهم لا يعرفون إلا الجانب الذي يعكسه كل مغترب وقت نزوله إلى بلده بعد انقضاء سنة أو أكثر على سفره منها.. فهيئته ومظهره وما يحمله من هدايا لاتوضح أبدًا حجم معاناته خلال تلك السنة ليعود محمَّلًا بالهدايا ومحمَّلًا أيضًا بنظرات الحسد والأماني الخفية بعيون كل من يعرفه أن يتبادل الأدوار معهم فيكونوا مكانه ويكون مكانهم، وكيف لا يُحسَد وهو من ذهبَ لينهل من أمواله وخيراته التي لا تنضب فهو النهر الذي لا يجف من نعيم الدنيا . كان للجميع "نعيمًا".. إلا أنا .

*****

انتقالي من المرحلة الابتدائية إلى الإعدادية أو" المتوسطة " كما كانت تسمى بمكان إقامتنا الجديد كان مرحلة هامة بالنسبة لي هي مرحلة انتقالية بالفعل في كل ما عشته من قبل سِنًّا ومكانًا وما استجد علينا الآن.. لعلَّ من أهمها كان ما طرأ عليَّ من ملامح الأنوثة التي بدأت ترتسم على وجهي وجسدي مبكرًا مقارنة بأخواتي الكبريات وقتما كُنَّ

في مثل عمري.. فقد اختلف شكلي وملامحي وتكويني أيضًا.. صارت لي مشية منتقدة دائمًا من أمي.. كما كنت أسمعها من قبل تحذر أخواتي الكبريات صارت تحذرني وتعنفني بنفس القول :

-" ندى.. إفردي ضهرك وانتي ماشية.. ماتأتبيش كده.. عادي كل البنات عندهم زَي اللي عندك مش أول بنت ولا آخر بنت خرَّاط البنات يخرطها".

كان وقع الجملة الأخيرة على مسامعي غامضًا وقويًا ومخيفًا.. فالخرط بالنسبة لي يذهب تفكيري إلى آله الخرط نفسها وليس معناه المعنوي أو كناية المعنى المعروف لعامة المصريين من أن البنت تخطت مرحلة الطفولة ودخلت مرحلة البلوغ وهي بمثابة جواز مرور إلى عالم الأنوثة و الصبا.. كانت وجنتاي تتورد حمرة وخجلًا من كلام أمي الصريح.. فقدر ما كنت أحاول إخفاء بروز صدري المفاجيء والذي جعلني أسير دائمًا منخفضة الرأس محنية الظهر أكاد أشبه رقم اثنين كتابةً.. ململة نفسي بين ذراعي لأخفي ما بدرَ من الطبيعة على تكويني دون تدخُّل منِّي أو كما كنت أسمع من جاراتنا وقتها مرارًا وخاصة جارتنا التي تقتسم معنا حائطًا واحدًا فاصلًا بين سكننا وسكنها وهي من كانت الأقرب لأمي ولنا جميعًا منذ وطننا سكننا هذا.. " نوال" أخت زميل أبي بالمدرسة وجارتنا عندما كانت تهمس لأمي:

-"ماشاالله على " ندى" أحلى بناتك.. فايرة قبل أوانها.. اللي يشوفها يقول هي الكبيرة مش الوسطانية".

ولم أكن أعلم معنى ما تقول لكني كنت ألحظ نظراتها لي كلما أتت إلينا لتناول القهوة مع أمي عصرًا خلال أيام الأسبوع.. وإبدائها إعجابها بجمال شعري و" لفة جسمي" على حد قولها.. مما كان يثير غيرة أختي الكبيرة " نهى" ويعكس غيرتها تصنُّعها المشكلات معي على الإكسسورات الخاصة بنا من أمشاط شعر أو أساور وحلي وإن كان بسيطًا ورخيصًا أيضًا.. فعلى عكس تسلطها ومحاولاتها فرض سيطرتها علينا كأخت كبرى كانت أختي الأصغر منها والأكبر منّي " نسمة" بحق هي نسمة.. لم تنل من الجمال قدرًا كبيرًا ونالت من خفة الظل والرقة ومن اسمها نصيبًا كبيرًا لشخصها.. فكما كانت تقول أمي:

-"ندى تشبهني أنا وخالاتها كأنها أختنا.. أما نسمة ونهى طالعين لعماتهم باعوا الجمال واشتروا خفة".

على عكس ما كنا نشعر به في مصر.. كان الوقت في غير أيام الدراسة يمر علينا بطيئًا جدًا.. فكانت العطلة الأسبوعية لنا هي عقاب.. فما كان أبي له من الفراغ والمال الفائض ليذهب بنا إلى منتزه أو مطعم أو تسوق فما كانت العطلة لنا إلا لمشاهدة برامج التلفزيون الأبيض والأسود المملة.. والتي كانت تقتصر على الكارتون أو الأفلام الأجنبية المكررة.. فباتت أيام الدراسة بالنسبة لنا هي الترفيه -فالمواد الدراسية لم تكن بالنسبة لنا معضلة إطلاقًا - والعطلة هي العقاب. وبالرغم من عددنا وعمل أبي ليل نهار ليوفر لنا سبل العيش واحتياجاتنا ومتطلباتنا وهو المورد الوحيد لدخل أسرتنا الكبيرة إلا أننا لم نشعر إطلاقًا بتقصيره تجاهنا إلا عندما نسترق السمع أو يتهادى إلى أسماعنا

مصادفةً كلام أمي له عن الخوف من المستقبل وجواز البنات وتجهيزهن فالبنات كقولها - همّ تقيل وبكسر الوسط - ولم نكن بنتًا ولا اثنتين بل أربعة هموم على حسب وصف أمي .

-قلقانه يا محمد من جوازات البنات ؟

- جواز إيه بس اللي انت قلقانة منه يا خديجة من يوم ما اتولدوا.. حتى لما سبنا مصر وجينا هنا كمان ! ثم إن البنات لسه صغيرين .

-صغيرين ازاي بس ! أهي البنت الكبيرة بقت في الثانوي.. وهاتخش الجامعة كمان سنة ولا اتنين بالكتير.. مش مسير ابن الحلال يجي ويطلبها ؟هانقوله ساعتها إيه بقى؟ استنى لما نحوش تمن جهازها ؟

-حيلك بس حيلك يا أم عادل.. وقت الله يعين الله يا ستي.. وبعدين مش بس لما يجي؟ ما يجي هو حد حاشه !

كان أبي مبتسمًا دائمًا.. وجهه الصبوح يخفي وراءه تفكيرًا دائمًا وتكشيرة يجيد التخلص منها بسرعة .

انتهت مدة الإعارة بحلوها ومرها أربع سنوات مرت علينا لم نرَ فيها مصر مرة واحدة علاقتنا بالأهل لم تتعدَ الخطابات ومكالمات هاتفية في المناسبات فقط.. تأقلمنا مع الجو والمكان والناس وذلك ما شجَّع أبي لطلب مد الإعارة بأعوام أخرى.. فقد اعتدنا على غربتنا بل والأصح اعتدنا على الدخل الذي منه نعيش ونقتصد للغد – كقول أمي ..

- ما دمنا كلنا مع بعض ومبسوطين هنا.. على إيه نرجع دلوقتي مصر بقى ؟

بالطبع كنت قد أنهيت المرحلة المتوسطة ودخلت الثانوي. سنواتي بالدراسة الثانوية من المحال نسيانها.. كانت أبهى مراحل حياتي.. فيها كنت بشهادة الجميع أجمل فتيات صفي الدراسي بل أجمل فتيات المدرسة جميعهن.. مدرستي وزميلاتي كانت وكن السلوى لي في غربتنا..

بطبيعة الحال في مجتمع مغلق لا يبيح الاختلاط بأي صورة من صوره ولا حتى بداخل المحال التجارية من البديهي أن لا نعرف عن الجنس الآخر شيئًا سوى ما يعرضه التلفاز بقناتيه اليتيمتين فقط.. وبعض المجلات التي كانت تُمنَع عنا أيضًا إلا صدفة أو تهريبًا بيننا كبنات فقد كنا نتخاطفها لمشاهدة صورة لممثل أو مطرب أو حتى مانيكان يعرض مجرد ثوبًا عربيًا، أو ممثل يعلن عن معجون حلاقة.. وكثيرًا ما كنا نتعايش في الخيال مع تلك الصور.. نحلم ونتخيل ونعيش قصص حب وهميه ما تلبث أن تنقشع مجرد انتباهنا لخيال آخر يوقظنا لأب أو أم أو معلمة أحد منا .

بطبيعة تواجدي بينهم كمغتربة آتية من أرض الخيال والحُلم بالنسبة لهن " مصر" حيث الاختلاط المباح و دون قيود أو شروط أو رقابة من أشخاص أو هيئات في الشوارع والمحال التجارية والمطاعم والأسواق والسينمات والنوادي.. كنت محط أنظار واهتمام الجميع خاصة في حصص التربية الرياضية أو الفنية حيث لم تكن تحظى باهتمام

الإدارة أو الطالبات كونها موادًا دراسية لا درجات لها في المجموع النهائي للسنة الدراسية.. كان توقيتها الأسبوعي هو موعد تألُّقي كنجمة آتيه من فضاء الحُلم عندما يلتففن حولي لأسرد لهن حكاية من حكايات الجيران أو علاقة بنات الجيران بأولاد الجيران أو أن أصف لهن إحدى الرحلات التي كنَّا نقوم بها في العطلات للمنتزهات أو الشواطىء أو الأفراح التي حضرتها ببلدي قبل القدوم إليهن.. وكنت كثيرًا ما أزيد في الوصف لأنال من اهتمامهن وربما غِيرتهن و حسدهن أيضًا عليَّ وعلى ما عشته دونهن حتى أظل بالنسبة لهن دائرة الاهتمام دومًا .

في هذه المرحلة اقتربت مني الكثيرات من زميلات صفي الدراسي والصفوف الأكبر منِّي أيضًا يطلبن ودِّي وصداقتي مع اختلاف جنسياتهن، كن ما بين السوريات والتونسيات والسودانيات مزيجا مختلفًا وغير متآلفٍ بالمرة في عاداته وتقاليده ولكن اجتمعن جميعهن في خطٍ واحدٍ هو أننا لسنا من مواطني تلك البلد ولكننا فقط – مقيمين، غرباء– الكل كن يتقربن لنيل صداقتي ومنهن من كانت تتودد لي لما هو أكثر من الصداقة..

نعم.. فقد كانت منهن من تتعمد أن تقترب منِّي بشكل خاص جدًا لتتحسس أجزاء جسدي خلسة.. عن طريق الضحك أو الهمس بسرٍّ ما مرة، ومداعبة وموحية مرة أخرى بما أكثر من اللمسة..

مجتمع مغلق شكلًا وموضوعًا.. عادات وأفكار عقيمة نشأنَ عليها وتربت عليها أمهاتهن وجداتهن باسم العادات مرة وباسم الدين مرات..

وكأن الدين خلقه الله فقط لمنع وحرمان وليس لسماحة التعامل أو تهذيب النفوس أو تفنيد شكل العلاقات بشكلٍ عامٍ بروح سمحة وعدل ورحمة.. كأن الدين هو السوط والرهبة لهن.. خشية العقاب الإلهي لا يفعلن لا يشعرن لا يعبرن عن أنفسهن.. ترهيب لا ترغيب.. حتى إنني كنت أعتقد أن عبادتهن إليه لا تصدر عن حب ورغبة في التقرب إلى الله أو طاعته بل خوفًا من بطشه وعقابه.. وشتان ما بين الإخلاص في النقيضين.. عادات وأفكار جعلت من الأنثى كمًا مهملًا.. حُرِّم عليها التعبير أو الإفصاح عن مشاعرها كما لو كانت كل ذنبها أنها خُلِقَت أنثى فهذا وحده سبب كافٍ لئنْ يُحتسَب كجُرمٍ تعاقب عليه من مجتمعها خلال تلك المرحلة العمرية لأي فتاة هنا..

وما أخطرها مرحلة.. جهل من الفتاة.. إهمال من الأسرة مجتمع يحكم عليها دومًا بالسكون والانصياع لرغبة ذويها.. لا نشاط يمارس فتخرج طاقاتهن في صور رياضية أو فنية أو فكرية.. لا صداقات خارج أسوار المدرسة سوى أقاربهن فقط.. لا اختيار لهن هم واقع يرضونه شئنَ أم أبينَ..

"عهد"

تعددت ونمت صداقاتي وشملت كل الجنسيات هناك ممن كنَّ يدرسن معي لاسيما صديقتي "عهد " التي كانت تلازمني بكل مكان.. وإن حدث وكانت بصف دراسي غير صفي.. استغلت نفوذ وعلاقات أهلها ومعارفها وفعلت المستحيل حتى يتم نقلها إلى صفي بل وإلى المقعد المجاور لي أيضًا..

كانت تلازمني كظِلي طيلة اليوم الدراسي.. بل تكاد تحوطني بعينيها قبل يديها.. فلم تكن أي واحدة من المدرسة تستطيع أو تجرؤ على الاقتراب منِّي أو التحدث معي دون المرور بها أولًا لتسمح لها أم لا.. وكان هذا يتم قطعًا دون توضيحه بشكلٍ فاضحٍ بيدأن الكل يعرف أن هذه العلاقة العجيبة معروفة ومتعارف عليها بالمدرسة بل بين الفتيات عمومًا بالبلدة.. بدت وكأنها تغار عليَّ غيرة الشاب على الفتاة وليست الصديقة فقط لصديقتها.. دائمًا ما كانت تشعرني بأنها المسئولة عنِّي بالمدرسة..

- حبيبتى ندى.. أكلتي أجيبلك فطور؟

-تبغي أساعدك أنا بالواجبات؟

-عافية بالله عليكِ لا تسهري كل ليلة نامي مبكر.. عيونك بتتعب.أخاف عليكِ..!

كنت أظنها تحاول أن تصادقني بشكل مبالغ فيه حتى تستفيد مني دراسيًا فقد كنت أفوقهم جميعًا دراسيًا.. أما هي فلم تكن تختلف عن الكثيرات بالصف.. ولكن نظرتي لها تغيرت وتحددت معالمها بعد أن أمطرتني بوابل من الخطابات المنتقية الألفاظ والمعاني الغرامية التي كانت تدسها لي خلسة في حقيبتي أثناء تأهُبنا للانصراف في نهاية اليوم الدراسي.. الحق كنت أرتاب منها في البداية ولم أعلق عليها.. كأني لم أرها أو أقرأها.. ولكنني لن أنكر أنني قد أصبحت من نسيج تلك البلد.. وما تحياه جميع الفتيات هنا أحياه معهن ومثلهن تمامًا.. حياتي هي حياة الكثيرات من بناته أحاسيسهن وانفعالاتهن، جميعنا متأثرات بالجو المعتم أُسريًا واجتماعيًا ونتيجة عدم الاختلاط ولو في الحياة العامة سواء المطاعم أو المتاجر أو ما إلى ذلك.. خشية من الأهل تارة وتنفيذًا لأوامر وقوانين البلد ممن اتخذوا الشرع والشريعة سببًا موثَّقا لهم في أخذ القرارت وإقامة الحدود أيضًا.. لم يكن هناك ثغرات ولا استثناءات.. وبالتالي لم تكن هناك علاقات عامة أو مباحة للجنسين في أي عمرٍ كان.. وكل ممنوع مرغوب .

تكررت رسائل "عهد" لي.. وتكرر ادعائي باللامبالاة.. تأذيت مرة ومرات مما تكتبه لي ثم أصبحت أنتظر تلك الرسائل بل أتقبلها منها بابتسامة كردٍ مني على ما تكتبه لي بالرضا والموافقة.. لم أتخلص من خجلي فأتجاوب معها ولم أنهرها فتبتعد عني.. فقد باتت ترضي غروري كفتاة مراهقة.. وشعوري باحتياجي لاهتمام من نوعٍ خاص لم أكن لأحدد نوعه أو كيفيته.. فقط كنت أستشعر السعادة جراء كلماتها التي

تغازلني بها دون الخوف من الغير أو رقابة أحد.. ولِمَ أخاف! هي فتاة مثلي مثلها ولا مجال للريبة إطلاقًا .

أصبحت تروي اشتياقي لكلمات الحب والإعجاب التي لم أسمعها سوى منها.. فهي من بلدة أخرى أكثر مدنية من البلد التي نعيش بها جميعًا الآن، وقد أتت إلى هنا مع أبيها الذي يعمل طبيبًا بالمستشفى العام.. ولديهم ما تميز به منزلهم عن منازل البلدة كلها.. لديهم جهاز ستالايت وريسيفر وجهاز فيديو وأشرطة علمية وثقافية وترفيهية يحضرها أبوها لهم باستمرار للترفيه أو التعلُّم.. وأخرى كانت تحكي لي عنها مؤتمناني على سِرِّ استيلائها عليها دون علم أبيها من خزانة متعلقاته الشخصية- فهي أشرطة ثقافية خاصة جدًا - كنا نكمل بعضنا البعض دون أن ندري.. أنا بما أرويه لها عن القاهرة.. وحياتنا بها من جانب مُشرِق ويُسِل لعاب أي فتاة في عمرنا وقتها.. أما هي فكانت بمثابة صندوق الدنيا بالنسبة لى، نافذتي على عالمٍ لم أرَه إلا من خلالها وحلمت بجواز مرور داخله بصحبة روايتها ووصفها وكتاباتها لي عنه ومنه.. عالم له من الخفايا والحكايا لم أكن لأعرفها دون "عهد".

تعلقت بها..

أصبحت شيئًا هامًا في حياتي.. بل في يومي أيضًا.. أدمنت كلامها وخطاباتها التي حفظتها عن ظهر قلب، لم أعتَد الاشتياق لكلماتها فقط.. بل أحيانًا أشتاق إلى لمساتها الخاطفة الحانية إلى جسدي.

إلى أن جاء يوم نهاية السنة الدراسية وبداية العُطلة.. وقد اعتدنا منذ أتينا إلى هنا على أنَّ العطلة هي عطلة من الدراسة وتقتصر على ذهابنا لأداء العمرة أسبوع أو عشرة أيام فقط لا غير.. أما النزول إلى مصر فلم يحدث أننا نزلنا إلى مصر سوى مرة واحدة بعد قدومنا إلى هنا بأربع أو خمس سنوات وكان بسبب مرض أمي واحتياجها لإجراء فحوصات خاصة لم تكن لتتوافر بمكان إقامتنا، وبجانب إلحاح منا جميعًا وافق أبي وأمي على أن نزور أهلنا بمصر.. وصادف احتفال خالي بزواج ابنته في إحدى قرى محافظة الشرقية.. أمضينا هناك أيامًا لها من الذكريات ما لم يُنسَ أبدًا.. أقارب وأماكن وأحداث كلها في فترة زمنية بسيطة، وبعد اشتياق لمصر كانت بمثابة غسيل لأرواحنا وتبلُّدنا الذي اكتسبناه من غربتنا بلا أهل ولا أصدقاء سوى من فرضتهم علينا الغربة فقط.. باستثناء هذا كان النزول والسفر إلى مصر من حق أبي فقط وكان غالبًا بخصوص تجديد أوراق وإجراءات إجازاته أو مجاملات الأهل في زواج أو ربما المشاركة في عزاء ودفن أحد المقربين لنا.. توفيرًا لنفقة السفر.. فأسرة مكونة من سبع أشخاص تكاليف سفرها سنويًا أولى لها أن تدخرها للغد.. هم أحوج لها من صرفها وما يتبعها من هدايا لزوم السفر للأهل والأصدقاء.. ولِمَ السفر سنويًا؟ طالما الأسرة جميعها مجتمعة في مكان واحد!!

نهاية العام الدراسي كان يومًا حزينًا لأغلبنا ممن لن يغادروا البلدة في العطلة.. وقت ما كان اليوم الذي سنتخلص فيه من الاستيقاظ مبكرًا والمذاكرة والاختبارات كان هو نفسه توقيتًا بالحُكم علينا بالاحتجاز بالبيت رهن الحوائط بلا صديقات ولا ضحكات ولا مشاركة بعضنا

البعض لليوم أيًا كان شكله بالمدرسة.. وأقسى ما فيه كان هو أني لن أرى "عهد".. وسأُحرَم من رسائلها ولهفتها عليَّ.. سأُحرَم من إفطارنا سويًا وضحكنا معًا.. سأُحرَم من شكواي لها وشكواها لي.. سأُحرَم من نكاتها المكشوفة الهامسة بيننا والتي كانت تزيد ارتباطنا سويًا قدر ما كان بيننا من أسرار..

لم أعرف ولم أذق طعم الحب أو علاقة فتاة بشاب كيف يكون إحساسها.. توهمت أنها مصيري وارتبط وجودي بوجودها..

بكيت وبكت .

"وجـدي"

عدت إلى المنزل لأجد نشاطًا غير معهود من أمي.. نشاط له لون الفرحة، ألوانه تشع بأرجاء المنزل.. فرحة.. آنستني للحظات الدموع التي ذرفناها على باب المدرسة من دقائق لم تبلغ الساعة.. الابتسامة التي كانت تعلو وجه أمي لم أعرف لها سببًا مُسبقًا ولم أعتَدها مشرقة في وجهي بهذا الشكل إلا نادرًا جدًا.. " إياااااك حد يقرب من التلاجة.. الجاتوه بتاع الضيوف محدش ياكل منه – فاهمين"!

كان صوت أمي يصيح في إخوتي الصغار كما لو كانت تدفعهم دفعًا بكلماتها من طريقها.. وهي تسرع الخطى في مساحة لا تتعدى الأمتار بين المطبخ والصالة وغرفتها.. في حركة مكوكية منهمكة ولا أدري لماذا؟

أمسكت بصغيري الحبيب "عدولة".. وهمست له في أذنه مبدية اهتمامًا بالغًا لما سيقوله مقدِمًا لي جوابًا على سؤالي:

-عدولة.. في إيه النهارده؟ ماما مالها بتزعق لكم ليه؟

-معرفش يا ندى.. اسألها انتي.. أنا سمعتها بتقول لبابا الصبح ارجع بدري عشان تستعد تقابل الضيوف .

لم يروِ ظمأي عادل ولم يعطِني الإجابة التي تجيب على علامات الاندهاش التي ارتسمت على وجهي أنا الأخرى ردًا على علامات ومظاهر

الاحتفال ببيتنا وهو مالم نعتَد عليه من فترة كبيرة باستثناء أيام ظهور النتائج الدراسية أو تفوُّق أحد منا دراسيًا..

- في إيه يا ماما؟ مين اللي جاي لنا النهارده؟ حد جاي من مصر !!

فاجأتني بابتسامة عريضة وعينين لامعتين وما لبثت أن أكملت اندهاشي بجذبها لي وضمها لي بقوة إلى صدرها قائلة..

-أهلًا اهلا بعروستنا الحلوة ندنودة.. هاتي بوسة لماما تعالي.

تعجبت..

بل تجمَّدت مكاني.. فلم أعتَد من أمي أن تقبِّلني منذ فترة طويلة.. لم أعد أذكر كم مضى من الوقت منذ أن قبَّلتني آخر مرة.. فعلاقة أمي بنا كانت تقتصر على الأمر والنهي والإرشاد لم تكن يومًا صديقه لإحدانا أو مستوعبة لسنِّنا ولا متطلباتنا النفسية.. حتى إنني أذكر يوم صرت " أنثى" بمقياس الطبيعة.. خفت أن أخبرها مباشرةً بتطورات الحدث وأخبرت أختي الكبرى لتبلغها حتى أتخلص من لائحة الممنوعات والمفروض عملها خلال تلك الأيام من كل شهر.. فقد بات كل كلامها معي أوامر أوامر أوامر..

لم تكن تعلم باحتياجنا لها كصديقة ذات خبرة بأمور البنات بحُكم مرورها بمراحلنا العمرية، لم تسمعني يومًا، لم تحتضني.. لم تكن تسأل أو تعلم عمَّا أخفيه دائمًا في شرودي أو يقظتي أو حتى ما كنت

أخفيه بين طيات كتبي وملابسي من رسائل "عهد" لي.. إذًا ما الذي حدث اليوم وجعلها تقبِّلني وتحتفي بي بشكلٍ خاصٍ؟

كان عليَّ أن أربط بين ما يحدث وما قالته لي " أهلًا بعروستنا ".. إذًا الأمر يختص بعريس !

لمن؟ لي أنا؟ كيف؟ هناك أختان تكبرانني سنًا وإن كان الفرق بيننا بسيطًا جدًا.. ولكنهما أنهتا الدراسة الثانوية والتحقتا بدار المعلمات حتى ينتهيا خلال عامين من التعليم والعمل بمكان إقامتنا أيضًا إلى أن يجيء النصيب لكلتيهما وتتزوجا ويخف الحِمل عن كاهل أبي.. ولكن كيف تخطاهما الدور وصرت أنا من أتى إليها العريس ؟

الأسباب كانت بديهية للغير ولكني أرفضها من داخلي.. مقياس الجمال لم يكن يشغلني إطلاقًا.. ولكن ربما لعريس الغفلة هو المقياس الأمثل.. ومَن يكون إذًا ؟!

لم يكن من الصعب أن أتخيل أو أفكر في من سيكون العريس المنتظر ولم أكن متشوقة لمعرفته.. لأنه بالتأكيد سيكون أحدًا ممن يعرفنا من هنا.. فأستبعد تمامًا أن يكون من غير بلدتنا التي نعيش بها الآن وهم معدودون على الأصابع .

وبالفعل لم يُخِب ظني.. فقد كان هو الأستاذ " وجدي" أخو جارتنا " نوال" فقد باتت ترمقني بنظراتها واستفسارتها وتتجاذب معي الحديث كلما سنحت لها الفرصة معي منذ أن أتينا إلى هنا وكنت وقتها طفلة

على عتبات الأنوثة.. وبخاصة أنها لم يشغلها بعد انتهاء فترة دوامها في الواحدة ظهرًا من عملها كمعلِّمة ابتدائي هنا.. إلا مشاهدة المسلسلات السورية والتركية والحديث مع أمي عن كل كبيرة وصغيرة تخصنا أو تخصها سواء هنا أو بمصر.. فهي منذ أتت إلى هنا منذ عشر سنوات ومعها محرمها الأخ الأصغر لها والذي كان قد أنهى دراسته للتوِ وقتها وهي لم تتزوج بَعد على حدِّ قولها:

- الزمن جري ونسيت نفسي وانا بربّي اخواتي الصغيرين وبساعد الكبار في تربية ولادهم.. المعايش صعبة وانا خلاص راحت عليَّ.. و اخواتي وولادهم هُمَّا ولادي.

" وجدي" هو مُعلِّم الرياضيات بالمدرسة التي يعمل بها أبي والمشهود له بحُسن الأخلاق والهدوء، وانتشاره أيضًا بين بيوت العائلات من أصحاب البلد لإعطاء أبنائهم الدروس الخصوصية والتي كانت تدرّ عليه دخلًا مجزيًا يعادل راتبه من المدرسة وربما أكثر على حد قول " نوال ".

باتت كل محاولاتي بالرفض فاشلة أمام إصرار أمي وانسياق أبي لها لما أقنعته به من أسباب.. مع أنني لست الكبرى.. لكن

- " اللي يجيلها نصيبها بالسلامة نوصّلها لبيتها – احنا هانعيش لما نجوزهم كلهم؟ "

من ذلك اليوم.. وفور انتهاء آخر عام لي بالثانوي عُقِدَ قراني على وجدي.. وكانت فرحتي الوحيدة آن ذاك هي أنني سأعود إلى مصر.. . وبات حُلم استكمال دراستي الجامعية في خطر.

تزوجت خلال العطلة الدراسية.. ثلاثة أشهر كانت كافية أن يؤثَّث بيت صغير لعريس شاب وارد الخليج.. كان بالطبع هو مسبقًا حاصلًا على مسكن ومجهَّز بأساسيات أي بيت تحلم به عروس وقتها غير باقي تفاصيل بسيطة من السهل أن يؤتى بها سريعًا ليكون منزل زوجية يليق بعروس وعريس في وقتٍ مناسب.. كانت بالطبع فرحة عارمة لأخواتي ليس لزواجي لا، بل لأنهم أخيرًا سيزورون مصر.. سيشاهدون أصدقاءهم وأهلهم وبلدهم التي طالت غربتهم عنها حتى إن أخي عادل وأختى الأكبر منه لم يعودا يتذكران بمصر أي شيء سوى من الصور أو حكاياتنا عنها.. وكان على الأسرة أن تنهي كل شيء خاص بانتقال إقامة أحد أفرادها من بيتهم إلى بيتٍ آخر.. فقط نقل إقامة بالنسبة لهم.. إقامة لحياة لم يعدِّوني لها، لم أفكر فيها من قبل، لم أكن لأتخيل حدوثها بهذه السرعة وهذه الطريقة، وبالنسبة لي كان مسارًا آخر لم ولن أتوقعه في يومٍ من الأيام .

استقرينا أنا ووجدي بمصر.. وواصل عمله بالتدريس: نهارًا بالمدرسة وليلًا في مركز لإعطاء الدروس الخصوصية.. اليوم كله كان بالخارج لتحصيل أكبر ما يمكن تحصيله من إيراد الدروس الخصوصية فما استنفذه من أموال الغربة لبناء منزل الزوجية وتأسيسه عليه أن يعيدها إلى حسابه البنكي بل ويزيدها تحسُّبًا لأيام قادمة قد يصبح

فيها أبًا مسئولًا عن أبناء وبيت و.. و. و.. و.. وبالطبع انتقلت من جدران بالخليج إلى جدران – لعلَّها أرحب قليلًا - من جدران بيت أبي فيكفي أنها بمصر..

حياتي الزوجية بدأت بشكل تقليدي معهود في الأفلام الأبيض والأسود.. خجل.. فتعود.. فمشكلات.. لم يكن يربطني بوجدى أي علاقة من أي نوع قبيل الزواج.. فلم يعرف قلبي الحب ولا حتى الإعجاب المتبادَل بيني وبين وجدي.. فقط كان عريسًا مستعدًا للزواج وكنت فتاة خام نقية من كل شيء.. طفلة.. ثمرة نضجت حسبما رآها أبواها هكذا وقدماها لأول معجب أو مشترٍ أو مقدِّر لتلك الثمرة لتكون وجبة شهيه له أو حتى.. حلو ما بعد الوجبة ربما.. كانت بدايات زواجنا حافلة بالخروج و بالزيارات أثناء أيام الإجازة الأسبوعية فقط والتي كانت غالبًا ببيت أهل وجدي أو العكس.. هم يزوروننا أو نحن من نزورهم.. لم يطرأ الجديد على حياتي سوى أنني تركت المدرسة وتزوجت.. وبعد إلحاح منّي عليه قدمت أوراق التحاقي بالجامعة بمصر.. وقد طلبَ مِنّي وجدي أن أسجِل تأجيلًا للدراسة لمدة عام وهو شرط موافقته على تقديم أوراقي للجامعة؛ فأنا لازلت عروسًا وربما يرزقنا الله بطفل.. فهو أولى من الجامعة حتى لا أُجهَد بين الدراسة والبيت والإنجاب " هكذا كان تصور وجدي والذي كان عليَّ بدوري أن أطيعه.. فأنا لم أعتَد أن أفصح عن رأيي في وجود الأكبر منّي.. كان أبي وأمي والآن.. أصبح زوجي .

مرَّ عام على زواجنا وتحولت المعاملة منه ومن أسرته بشكلٍ مُلاحظ و مبالغ فيه.. والسبب أنني لم أستطع أن أتأقلم معهم في معيشتهم ولا

مجاراتهم في أحاديثهم أو زياراتهم المتعددة للجيران والأهل.. فقد كانت متعتي تكمن في قراءة المجلات والقصص الرومانسية وسماع الأغاني والتواشيح الدينية والموسيقى.. لم أحب الخروج ولا جلسات النساء التي لم تكن سوى جلسات للنميمة والقيل والقال.. فحياتي قبل الزواج وما اتسمت به من طابع الهدوء والعزلة، فرض عليَّ نفسه حتى بعد تركي للمكان أصبحت أحب أن أكون مع نفسي ولنفسي أعيش.. بل وإن لزم الأمر معها فقط أتحاور .

لم أسلم من قسوة لسان أمه وإخوته ومعياراتهم لي بعدم الإنجاب فكل من تزوَّجَتْ معي أو بَعدي من قريباتهم وجيرانهم إما أن صارت أُمًا أو تنتظر مولودًا ولم ينتهِ الموقف عند هذا الحد بل تعدى الألفاظ إلى أن تطاول هو نفسه عليَّ بالسباب والإهانة كوني لم أنجب بعد مرور عام ونصف من الزواج.

- طيب هو أنا المسئولة لوحدي عن الخلفة يا وجدي؟

طب ما انت كمان لازم تروح للدكتور وتشوف العيب من مين فينا؟

- انتي بتقولى إيه؟ أنا راجل يا مدام.. وبعدين هو مين اللي بيخلف أنا ولا انتي؟ بصي يا ندى أنا طوّلت بالي عليكي أوي يابنت الحلال لغايه هنا وكفايه أنا عاوز الولد اللي افرح بيه ويشيل إسمي بعد ما اموت..

- يعني ايه؟ هاتطلقني!

*****

بالفعل تم الطلاق..

بنفس سرعة الزواج بمقياس الزمن.. لكنه كابوس بمقياسي الشخصي وحُكِمَ عليَّ به وانقضى واستفقت منه على لقب جديد لم أكن أنتظره ولا أتوقعه بل ولم أستحقه بعد.. أصبحت أحمل لقب " مُطلَّقة " و" عاقر" بنظر الجميع.. ذنب لم أقترفه ولم أسعَ إليه لأكون يومًا مذنبة بسببه.

جاء أبي إلى مصر مخصوص لمحاولة الإصلاح بيننا أو بمعنى آخر ليقنع وجدي بالعدول عن طلاقي وبعد أن فشل تمامًا في إقناعه بأن الإنجاب هو زرق من الله يهبه لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء.. أو لعل وقته بعد لم يحن لنا.. وكأنه كان يريد أن يمحو عنِّي وصفًا وسُبَّة قد تطاردني العمر كله وأنا لازلت بمقتبله.. عاد وعدت معه مرة أخرى إلى حيث كنت وحيث رأتني نوال وقدمتني لأخيها وجدي من بعد.. وكأنها كانت غمضة عين واستيقظتُ مسرعة مرة أخرى بنفس مكاني فلم يكن أبي يستطيع العودة لأجلي ولا يستطيع تركي وأنا مطلقة بدون أسرتي في مصر.. ولأنه قد استقر هناك هو وأمي وإخوتي بعد أن استقال من عمله بمصر واختار أن يكون مكان غربته هو بلده الجديد.

في هذه الأثناء تمت خطبة أختي الكبيرة " نهى" إلى أحد أقاربنا بمصر دون أن تعرفه أو تراه بلا أدنى اعتراض منه أو منها ويكفي أنها بنت الأستاذ محمد أبو الفتوح المعروف بينهم جميعًا ببلدته.. كانت فرحه أمي لم تكتمل بعد.. فعلى قولها :

- هوَّ البيت ده مش مكتوب له تمشي منه إلا واحدة بس؟ أنا كنت بقول هانت يارب والبنات تخف عنا واحدة ورا التانية.. أهي قبل ماتمشي التانية رجعت لنا الأولى ؟؟ أستغفر الله العظيم حكمتك يارب.

ولم تكن تعلم أمي كم هي مؤلمة كلماتها عليَّ.. عدت إلى حيث استوطنت أسرتي جميعها الغربة.. وصارت غربتهم بداخل بلدهم وليس العكس فكان ينبغي عليَّ التواجد معهم أينما كانوا .

أذكر أن أبي كثيرًا ما كان يقول : إن الإنسان يبقى غريبًا بأرضه إن افتقد الحميمية والأمان بها.. وطن الإنسان هو ما يجد به الأمان والاستقرار وما يأمن به غدر الزمان.. وطننا يعيش بداخلنا وليس العكس .

لم يمضِ على طلاقي سوى العام والنصف تقريبًا وحتى بعد أن طُلِّقت لم ترضَ أمي وبالتالي تأثيرها على أبي في اتخاذ قرار استكمالي دراستي الجامعية وكأني أكفِّر عن ذنبٍ لم أقترفه كوني تزوجت برغبتهم هم.. ولم أنجب بمشيئة من الله.. في كل الحالات كنت "مفعولًا به" ولست بفاعلة..

وتقدم لطلبي للزواج " فريد " ابن عمتي..

"فريـد "

منذ أن توفي أبي وخالي "محمد" هو أبي الروحي وصديقي أيضًا فقد كان هو الأقرب لأمي سنًا وروحًا وسكنًا أيضًا، مسكنه بالعباسية لم يكن بعيدًا عن مسكننا بحي الظاهر فلا يمر يوم إلا ويأتي إلينا أو يذهب أحدنا إليه.. تربت ودرست أخواتي البنات مع بناته نهى ونسمة وندى اللاتي كُنَّ من نفس أعمارهن تقريبًا، كنت أنا بالمرحلة الثانوية وقتها، ترك لنا أبي إرثًا كفيلًا بأن نعيش -مستورين - على حد قول أمي.. فنحن نعيش في منزل أبي وإخوته-أعمامي- ولنا دخل ثابت من إيراد مشروع تجاري لهم جميعًا لنا فيه نصيب إلى جانب معاشه من الحكومة فكانت حياتنا هادئة مستقرة.. ماديًا وأسريًا.. إلى أن أنهيت دراستي الجامعية وجاءتني فرصة للعمل بالإمارات، وقتها رفضت أمي بشدة أن أبتعد عنها متعللة بأنه لا داعي لسفري طالما " مستورة والحمد لله " ويمكنني العمل في مشروع أهل والدي فهو أيضًا مشروعي وخيره يعم علينا جميعًا.. فمن الأولى أن أعمل فيما نملك خيرًا من العمل عند الغير.

أما أنا فكان حُلم السفر بالنسبة لي لأسباب أخرى غير المادة.. فقد عشت مدللًا منذ الصغر؛ ولد وحيد على ثلاث بنات، خوف شديد لازمني من أمي عليَّ خاصة بعد وفاة أبي.. حتى إنني كثيرًا ما كنت أخجل من زملائي بالجامعة عندما يطلبون منِّي أن أرافقهم في رحلة خارج

القاهرة والمبيت ليوم أو أكثر.. فقد كانوا يعرفون أني لن أستطيع إقناع أمي بنومي ولو ليوم واحدٍ فقط بعيدًا عن البيت..

من هنا كان تعلُّقي بالسفر لأحيا حياة الحرية: أسافر، أعمل، أسهر، أرى أناسًا مختلفين وأماكن مختلفة.. أحاول أن أعيش بلا رقابة منها أو وصايا يومية أثناء خروجي من المنزل ولا استفسارات عند عودتي.

لم ينفعني في هذا الوقت في إقناع أمي سوى خالي" محمد".. كنت أعتبره صديقي الأكبر برغم فرق السن الذي اقترب من العشرين عامًا، إلا أنني كنت أنادية مداعبًا من وقتٍ لآخر بـ " حمادة" .

أمضيت بالخارج ما اقترب من العشر سنوات عملت باجتهاد وجِدّ حتى اكتسبت ثقة مديريّ وتطورت بسرعة ملفتة لمن معي في العمل.. فقد كنت مجتهد بطبعي، أسعى للفوز دائمًا بكل ما أستطيع، فلم أكن أفلت من بين يدي فرصة لاستزادة خبرة أو مكسب مادي أو حتى علاقات تفيدني في مجال عملي إلا وأقتنصتها وفي تلك السنوات أيضًا حققت ما تمنيت وحلمت ومالم أفكر فيه من قبل في كل شيء.. فحصار أمي وأعمامي لي طوال مرحلة الثانوية والجامعة أفقدني الكثير والكثير من حياة المتعة والإثارة التي كنت أستمتع بحكاياتها من أصدقائي بالجامعة مكتفيًا بابتسامة إعجاب ولهفة مستورة لمعرفة المزيد وأمنيات خفية مبتورة في خوض مثل تلك التجارب .

كنت على اتصالٍ هاتفي دائمٍ بخالي لاستشارته في أمور الاستثمار والشراء في مصر كحال كل المغتربين استعدادًا ليوم يعودون إلى بلادهم ويجنون ثمار غربتهم عقارات أو أموال .

ومن خلال اتصالاتي به عرفت بزواج "ندى" وطلاقها في العام الذي يليه تقريبًا.. لم أرَ ندى منذ تركوا مصر وذهبوا مع خالي إلى الخليج حينما كانت في المرحلة الابتدائية تقريبًا على ما أذكر.. كل ما أذكرها به أنها كانت طفلة رقيقة جميلة خفيفة الظل .

عدت إلى بلدي عودة نهائية بعد أن شعرت بأن ما مضى ليس بقليل في بُعدي عن أمي وإخوتي البنات اللاتي تزوجت منهن اثنتان وبقيت الصغرى.. فقريبًا ستكون أمي بمفردها بالمنزل على حدِّ قولها :؟" العمر بيجري يا فريد وأنا نفسي افرح بيك وأشيل عيالك زي اخواتك البنات كده.. هي امك ما بتوحشكش !"

توكلت على الله وعزمت على إنهاء عملي والعودة لإقامة عمل خاص أو متابعة ما استثمرته من مال بنفسي فلله الحمد أصبح لي خبرة في مجالي تتيح لي العمل في أي مكان أو تطوير مشروع عائلتي التجاري بكل ثقة، إلى جانب مقومات مادية تجعل أي أسرة تسعد بأن أقترن بابنتهم الآن .

ولكن أمي وأخواتي كان لهن رأي خاص آخر كان بعيدًا كل البُعد عن تفكيري وقتها في أمر زواجي.. فحينما بدأت الترشيحات لمن يتوسمن فيها مقومات زوجة الابن والتي لابد أن تروق لهن قبلي مثلما شعرت من

تعليقاتهن على بعض الجارات أو القريبات.. فما كان إلا أن بادرت أمي قائلة:

- إيه رأيك في ندى بنت خالك يا فريد ؟

- ندى.. ندى يا أمي؟!!

دى اتجوزت واتطلقت عشان ما بتخلفش زي ما سمعت – انتي مش عاوزاني اخليكي جدة ولا إيه؟

- يا ابني.. اللي اسمه وجدي ده ظالم.. البنت زي الفل.. هو عشان ما يفضحش نفسه جاب العيب عليها.. البنت عملت تحليلات ووريتها لي أنا وامها وابوها.. البنت ماتتعيبش خالص.. العيب كان منه هو صدقني يا ابني .

- يعني يا أمي اتجوز مطلقة؟؟؟

- مطلقة؟

دى بنتنا وأنا مربياها مع امها.. انت عارف مش هي اتجوزت واتطلقت؟ أنا أقسم لك أنها خجولة اكتر من أي بنت تانية في سنها.. يا ابني بنات الأصول دلوقتي نادرين ما تلاقيهمش.. ودي بنتى مش بنت اخويا.. انت بس شوفها الأول وأنا واثقة انك هاتغير رأيك خالص.

-طيب هاشوفها ازاي وهي مع أهلها بره بس؟ مش لازم اشوفها ولا اتجوزها كده عمياني؟

-هههههه عميانى إيه بس يا فريد ضحكتني.. ليه هو احنا سنة كام؟ أنا هاصبرك بصورها معايا في فرح المخفي وجدي اللي ميّل حظها وهي لسه وردة مفتحة واتحسبت عليها جوازة..

أنت أمي بألبوم صور للفرح وما بعد الفرح وحتى بعد أن انفصلت عن زوجها وجاءت لتسلم عليها مع أبيها قبل سفرها معه منذ أقل من سنة تقريبًا.. الحق أن بملامحها شيئًا ما جذبنى.. ربما نظرة عيينها الخجولة والحزينة التي انطبعت بقلبي؟

أو ربما ما سمعته عن تجربتها ومعرفتي وصلتي القوية بخالي وحبي له وعِلمي بكيفية تربيته لبناته هو ما وضع محبتها في قلبي مجرد ما رأيت صورتها! لا أعلم ربما يكون -الدم يحن - ولا أكثر.

ولكنى لم أستطع منع هاجس طاف بمخيلتي لعروس مرشحة لي ولها تجربة زواج سابقة، عروس لن أكن أنا أول متذوق لعسلها؟ وسواس نال منّي ولم أشأ أن أصدم أمي به.. فطاوعتها وأعلنت لها استعدادي لأن أرتبط بها إرضاءً لها ولثقتي بخالي وبها شريطة أن أراها وأتحدث معها أكثر من مرة.. لو أن القبول بيننا حدث فلِمَ لا ؟

وبقي أن نفكر في كيفية اللقاء .

لا أعلم ماذا فعلت أمي ودبرت، ولكن ما أعلمه تمامًا هو نتيجة فعلها الغامض هذا عنّي.. فإذا بها تخبرني بأن خالي محمد اتصل و سأل عني بعد أن أخبرته أمي بأنني أود أن أتكلم معه في أمرٍ هام .

هكذا وضعت أمي العقدة في المنشار وما كان عليَّ إلا أن أكمل ما رسمته هي لي.. ولأن ما بيني وبين خالي صداقة وأبوّة ومحبة ليست للقرابة فقط فقد أفصحت له عمَّا دارَ بيني وبين أمي وأخواتي بشأن ارتباطي بابنته.. فما كان إلا أنه قال لي:

- سبحان الله.. ندى وامها نازلين مصر كمان كام يوم عشان أم عادل وحشتها أمها ياسيدي قال وعاوزة تزورها.. النصيب بقى انكم تتقابلوا ده تخطيط ربنا يا فريد .

لم أنسَ صوت خالي وهو يحدثني وشكل الابتسامة التى ارتسمت على وجهه من دون أن أراه.. وكما قال تخطيط ربنا يافريد.. وأنا أعلم أنه تخطيط ربنا ومن ثم أمي وخالي .

وفي اليوم المحدد لوصولهما كنت في الانتظار بالمطار أترقب اللحظة التي أراها فيها متلهفًا لأول انطباع يأتيني عنها ومنها هل ستنطبق المواصفات التي رأيتها بالصورة والتي حكتها لي أمي مع مواصفاتي الخاصة والخاصة جدًا فيمن ستكون شريكة حياتي والتي رسمت لها صورة من سنوات كنت أمحيها وأرسمها من جديد عقب كل لقاء لي مع امرأة عابرة في حياتي .

ومنذ أن وطأتا أرض المطار ورأيتها تأكدت من الإحساس الذي انتابني وقتما شاهدت صورتها مع أمي.. آيه من الجمال والرقة.. تبدو كابنة السادسة عشر، خجولة رقيقة.. ألوان ملابسها الناعمة تعكس جمالًا

إضافيًا على وجهٍ جميل. ملامحها منمقة، دقيقة.. انعكست ابتسامتها على ملامحي فأشرقت تبعًا لها .

مرَّ يوم، وأيام صارت أسبوعًا كاملًا، كل يوم أراها بحجة أو أتصل بها لحجج واهية وهي بالتأكيد تعرف ما دارَ بين أمي وأبيها.. كان حوارًا ملتويًا عن الدراسة والغربة والموسيقى والقراءة عن الحياة بشكل عام. وجدتها على دراية بقشور الأمور، لا خبرة لها في أي شيء، نقية، بكر في كل شيء كما وصفتها أمي وهذا ما وضع السكينة في قلبي المحب والمتخوف من جنس حواء في آنٍ واحدٍ.. مِلت إليها وصارحتها برغبتي في الزواج منها.

زاد جمالها من احمرار وجنتيها وغض بصرها عنِّي، وتلألأت دمعة حائرة في عينها تمنيت أن أمحوها بشفتيّ حتى لا تجرح تلك اللألئ نضارة بشرتها وبهائها..

وكنت أسعد المخلوقات بزفافي على ندى .

" زفـاف "

كانت مفاجأة عمتي برغبتها في اقتران ابنها فريد بي غير متوقعة بالنسبة لي ولا لنا جميعًا لاسيما أبي الذي الذي بدا وكأن العناية الإلهية انتشلته من حفرة عميقة قد زُلج بها ولم يدرِ كيف ومتى وأين الخلاص منها.. كان فريد هو "الونش" أو الرافعة التي أخرجَتْه من تلك الحفرة.. فلقب مطلقة كان سوطًا يجلده قبل أن يصف حالي في عيون المحيطين.. وبالتالي رتَّب أبي لنزولي مع أمي في أقرب وقت لمصر بحجة اخترعها هو وأمي وعمتي بعد مباحثات وتفاصيل وترتيبات سرية كانت تجري بينهم ونشعر بها ونعلمها من خلال الاتصالات الهاتفية التي تضاعف عددها أضعاف أضعاف السنوات الماضية كلها.. فصارت مرة يوميًا وتصل إلى ثلاث مرات أحيانًا لترتيب أمور التعارف والزواج بالطبع.. إلى أن توصلوا جميعًا إلى أن ننزل إلى مصر أنا وأمي بحجة زيارةجدتي لأمي ظاهريًا أما جوهر الزيارة ما هو إلا إتاحة الفرصة لفريد ولي للتعارف وربما الاندماج أملًا في الارتباط.. ودَّعنا أبي بالمطار أنا وأمي بقبلات ودعوات وكانت عيناه تفصحان عمَّا لم يلفظه لسانه؛ فوداعه لنا ما كان إلا أمنية أن تكون نزلتي تلك بلا عودة .

رأيت فريد.. ورآني.. كان بالنسبة لي إحساس مهين مغلَّف بحالة من الرضا والتجاهل لما قد أشعر به من أنني أصبحت كسلعة للعرض حتى وإن كان المشتري هو قريبي لأبي؛ فلم يكن بيننا من زمن أي لقاء وحتى إن كان فأنا لم أذكره؛ ففريد بالنسبة لي كان أكبر سنًا ومكانة من أن

أفكر فيه كزوجٍ أو حتى صديقٍ.. فرق المكان والسن بيننا جعله لي هكذا..

منذ أن أتى لصحبتنا من المطار وإلى بيت جدتي وضحَ في عينيه اهتمامه بي بشكلٍ حاول أن يداريه لكن عينيه كانتا تفضحانه وأحيانًا تخونه ألفاظه أيضًا.. فيلصق اسمي بأيٍ من الشخصيات الأنثوية الموجودة بالمكان.. حتى إنه كان يخطئ أحيانًا في أسماء أخواته وينادينهن باسمي حال وجودنا ببيتهم أو وجودهم ببيت جدتي للزيارة .

لا أنكر أنه جذبني إليه بتلك النظرات الخاطفة والتي كنت أبادله إياها دون اتفاق؛ فما يدور في خلده هو ما يدور في خلدي.. فكلانا مرشح للزواج من الآخر.. بل هي أمنية أهالينا أن تنجح خطتهم في أن تتم هذه الزيجة وجميعهم من منطلق الحب والثقة لي وله .

كان فريد وسيمًا، مهندمًا في ملبسه، جميل الملامح، حلو اللسان.. لم يسألني عن زواجي الأول مكتفيًا بما عرفه من عمتي وأخواته أو من أبي وأمي ربما عن ملابسات الزواج والطلاق.. ذوقه ورقته في التعامل معي شدًا انتباهي وخلقا إعجابي به.. كان إعجابًا وليس حُبًا.. واعتقدت أنه كافٍ لقبولي الزواج منه.. اقتصرت لقاءاتنا المعدودة على أصابع اليد الواحدة على حوارات هامشية في الموسيقى والقراءة وأحيانًا الطبخ وشتى أمور الحياة العامة والخاصة.. وخصص وقتًا كبيرًا لوصف حالة الغربة التي عاشها على مدار عشر سنوات وما أنجزه فيها ووضعه المادي والاجتماعي برغم صغر سنه مقارنة بغيره ممن كانوا معه في نفس مجال تخصص.. وكيف أنه بنشاطه وذكائه اكتسب مالم يناله

غيره.. كانت ثقته بنفسه تبهرني.. وأنا بطبعي قليلة الكلام فكنت أكتفي بالتعقيب بالهمس أو بمجاراة الحديث فقط .

وتمت الخطبة ولم تزد عن شهرين فيهما سارع الجميع للمشاركة بالمجهود لإعداد منزل الزوجية واستعدادات العرس وحتى تفصيل فستان الزفاف ودعوة المعازيم لحضور حفل الزواج..

كان احتفالًا عوَّضني عن كل ماسبق في زيجتي الأولى التي أُحتُسِبَت علي رغمًا عني.. أو ربما لأني هذه المرة كنت أعرف أني على الأقل لن أهان: فهو بن عمتي.. ولن يستطيع إهانتي كما فعل وجدى وأهله.. بل والأهم بالنسبة لي كان هو أن زواجي به كان كرد اعتبار أمام الناس جميعًا: خاصة طليقي وأهله أنني لست بعاقر ولست أنثى ناقصة في شيء وأننى حتى وإن تزوجت وتطلقت لازلت مرغوبة في حين أنَّ بناتًا من سني ولازلن لم يتقدم لهن أحد.. وكان شرطي الوحيد أن أكمل دراستي الجامعية التي توقفت عنها مدة العامين.. ولم يرفض " فريد" بل وعدني بأن يقف بجانبي خلال الأعوام المتبقية.. وبكل الأوجه، كان فريد بالنسبة لأهلي ولي فرصة ربما لن تعوض لامرأة مطلقة في بداية حياتها.. ولِمَ لا وهو الأقرب والأغنى والأصلح لي من كل الأوجه ماديًا وأسريًا واجتماعيًا .

كان حفل زفافي أسطوريًا بالنسبة للأهل والأقارب والمعارف، ظل حديثهم لفترة طويلة.. لم يتردد فريد للحظة في أن يدفع في ليلة العمر هذه ما يجعلها بالفعل ليلة عمر لكل من حضرها وليس لنا فقط.. ربما

كان هذا جانبًا من شخصية فريد.. حُب الظهور والتباهي بما يملك.. أو يستطيع أن يملك ويفعل.

ارتديت فيه أبهى ما يمكن وصفه بفستان زفاف.. نُسِجَ من الحرير الطبيعى الذي كاد يتنافس مع رقة ملمس بشرة ونضارة ابنة العشرين ربيعًا.. شعرت بأنني لست فقط ندى بل ومنِّي يغار الندى فبدوت كلوحة فنية.. أشرقت وجنتاي بإطار أطرافه كانت من قرط الماس تدلى من أذنيّ ليصل بمن يراه إلى سحابة بيضاء شفافة في نهاية عنقي ازدانت بـ " عقد" يشير إلى صدر الفستان المرصَّع بأحجار من الشوارفيسكي الأصلي الذي أُحضِرَ خصيصًا لترصيع فستان زفافي حتى بدا جميع الحضور في حيرة.. هل الفستان هو من زيَّن العروس أم أن العروس هي من ازدان الفستان بارتدائها له !

كنت محط أنظار الجميع بل مسار حسد بقول أوضح.. فمع أنني مطلَّقة في عُرف المجتمع إلا أنني لازالت أمتلك الشباب والحيوية والجمال وفزت بذي المال والجاه والسُّلطة.. فقد كان فريدًا اسمًا وصفًا .

منذ أيام زواجنا الأولى ولم يبخل فريد عليَّ بشيء إطلاقًا فقط كنت أتمنى أو أحلم بشيء وقبل أن أكمل الحُلم يُحقَّق دون أن أتفوه بكلمة منه.. لم يشعرني للحظة بأنه الرجل التاني في حياتي.. بل شعرت معه بأني تزوجت الآن فقط.. وكأني تركت بيت أبي لأول مرة لأكون مع فريد.

صرت ملكة لقلبة وبيته بكل سهولة لم أبذل مجهودًا لنيل تلك المكانة، فقد كنت بالفطرة وعدم خبرتي بالحياة كقطعة صلصال بين يديه يشكِّلها كيفما أراد.. يجعل منها نموذجًا مصغرًا له إن أراد.. وإن لم يعجبه فله أن يدمجها من جديد ويعيد تشكيلها حسبما أراد أو أراد مزاجه أن يفعل لتسعده أو تكمل إطار حياته الذي حدده لها ولنفسه..

لم تكن معضلة.. فقد خرجت من بيت أبي وتعليماته إلى بيت وجدت فيه المهانة لمدة عامين ومن ثمّ عليَّ أن أكون مطيعة طاعة عمياء لزوج شاب وسيم غني فضَّلني عن مثيلاتى ممن لم تتزوجن بَعد وهي صفة لا تتوفر في شباب هذه الأيام كونه يُقبِل على زواج من سبق لها الزواج بغيره وإن ظُلِمَت فيه.. لكن المبدأ واحد.. إنه ليس بأول رجل بحياتي.. كانت تضحيته بالنسبة لي "جِميل" يستحق أن أتنازل مقابله عن أي شيء ممكن أن أسعده به فصار لي كأب آخر ولكن بصفة ومواصفات زوج له حقوق وواجبات وطاعة لم تكن لغيره من الآن فصاعدًا .

عانيت الكثير في أيام زواجنا الأولى كعلاقة زوجية خاصة.. فقد كان خيال وجدي دائمًا أمامي – في الفراش – لم أنسَ للحظة الإهانات والسباب الذي نلته منه بسبب عدم الإنجاب.. تولَّد لدي هاجس أن البداية هنا – في الفراش – والنهاية أيضًا ستكون بسبب نفس الفراش.. لم أشعر بنشوة اللقاء أو حتى مجرد الرغبة فيه.. ومع ذلك كنت أتفنن في إخفاء هذا الشعور وأنا معه.. بل كنت أُفرط في تدليله وإظهار سعادتي معه؛ لحظات لقائنا الزوجي، للقضاء على أي تفكير يتسرب إليه أو إحساس من خلاله يمكن أن يصدمني مرة أخرى في

أنوثتي التي طُعِنَت من قبل ولو بلفظٍ كنت أخشاه دومًا.. " أن أكون امرأة لا تُشبِع رغبات زوجها الشرعية " أو مطلَّقة للمرة الثانية .

وأخيرًا..

صالحني القدر.. وبعد ثلاثة أشهر من الزواج جاءت بشارة حملي الأول.. ولم تكن الأرض لتسعني ولا السماء.. فقط هنا استرديت أنوثتي التي طُعِنتُ فيها.. استرديت كرامتي كامرأة لا حول لها ولا قوة أمام جبروت رجل تناسى كل شيء فقط إلا رجولته وفحولته التي لا يجب أن تُهَان أو يُقلَّل منها..

فرحت وفرح زوجي وفرح الأهل بقدوم أول فرحتنا جميعًا وقد كان وأسميناها.." فرح " وبالطبع كان عليَّ أن أتناسى دراستي الجامعية مدة الحمل والإنجاب أولًا لأهتم بالحمل وأضمن أن يتمه الله على خير، كاملًا دون تدخُّل منِّي أو تقصير يجعل به مشكلة ما.. وحتى بعد الإنجاب كان عليَّ الاهتمام بالمولودة في بداية عمرها فلن أستطيع ترك فرح مع من يرعاها في غيابي أوالنزول دونها إلى الجامعة..

اختلف مذاق الأيام منذ جاءت إلى الدنيا فرح.. وبدأت أعرف مذاقًا جديدًا عليَّ.. إحساس غريب تملَّكني لم أكن أعرفه أو تذوقته من قبل.. وربما لم أستشعره مع أمي – إحساس الأمومة – كم هو عظيم.. شعرت كوني ممتلئة بالحنان والرغبة في العطاء كما لم أكن من قبل مهما وصفت.. إحساس أن تكون دومًا مصدرًا للعطاء شيء غير عادي.. العطاء بدون انتظار مقابل الرغبة فقط في إسعاد شخص آخر هو

بالفعل جزء منك حياته ترتبط بحياتك.. كأنك تحيا لأجله.. نهر يصب ببحيرة، لا النهر ينقص ولا البحيرة تكتفي.. أصبحت فرح كل حياتي بل وحياة فريد أيضًا..

وكأن الله يغدق عليَّ من نعمه لتزداد ساحتي براءة في نظر الجميع ويتوجني بتاج تتمناه كل امرأة.. " تاج الأمومة "

ففي العام الذي يليه أنعم عليَّ الله بـ " هنا " أختًا لـ " فرح" وصرت أُمًا لبنتين يتحاكى الجميع بجمالهما.. أصبحتا ابنتيّ هما كل حياتي وبهجتها.. فيهما أرى الدنيا وزينتها. تناسيت دراستي ولم أنسَها..

مرت تلك الأعوام برغم أعبائها ومسئولياتها من حملٍ وإنجاب وتلبية رغبات أسرة صغيرة لضمان حياة مستقرة وهادئة.. ولكنها مرت ولم أحسبها بمعيار الزمن بل بمعيار آخر استشعرته ولم أجيد التعبير أو الإفصاح عنه .

سعادتي بإنجاب ابنتيّ وتدليل زوجي لي كانت تنسيني الكثير من الأسباب التي كانت تنغص عليَّ حلاوة ارتباطي بـ "فريد ".. فبرغم كل ما مرَّ إلا أنني ومنذ أول يوم لزواجي افتقدت فيه متعه العلاقة الحميمية بزوجي.. ولا أدري ما السبب لها.. برغم محاولاتي التمرد على هذا الشعو إلا أنني انتهيت إلى أن أكون مستسلمة لذاك الشعور ولممارسة الحياة كما هي مادامت تسير بشكل لائق.. خاصة أنه لازال شبح الاتهام بالبرود في العلاقة يلازمني في اللاوعي بشكل مستمر..

ولا أدري لما تذكرت "عهد" الآن !!

ترى هي أحد تلك الأسباب ؟

هل ما كنت أستشعره معها من لذة في الحديث واستحضار خيالي المراهق وقتها كان سببًا لازال تأثيره مستمرًا فيفقدني إحساسي بالواقع الفعلي للعلاقة؟

لا أعلم .

وبرغم ذلك، اعتدت الحياة ومجاراتها والانغماس فيها دون أن أشعر بلهفة أو إقبال عليها.. حالة من البرود لازمتني بشكل عام بعد مرور أعوام قليلة من زواجي وإنجابي لابنتيّ..لم أعد أعرف كيف أرضي نفسي لتتصالح معي وتحيا برضا وسلام، كنت بارعة في عدم إظهار أي شيء مما أشعر به وأحياه بشكلٍ دائم بيني وبين نفسي.. في حين كان فريد -كرجل أعمال- يتميز بالعملية في كل تفاصيل حياته.. يحسب كل شيء بمبدأ المكسب والخسارة.. يعطي ليأخذ.. يزرع ليحصد.. هكذا علمته الغربة والأرقام ألا يحكِّم عواطفه في حياته إلا ما ندر.. حياته مع الأرقام جعلتها مبرمجة مجدولة، الحياة كلها عملية حسابيه وكانت عباراته الشهيرة " واحد زائد واحد لازم يساوي اتنين " إذًا لا مجال للاختيارات معه في مور محسومة مسبقًا عادةً .

اعتدت.. واعتاد

اعتدت.. أن أستمع بل وأنصت لأحاديثه المكررة في صمت

اعتاد.. الثرثرة والمباهاة بنفسه وبطولاته

اعتدت.. أن أرسم الابتسامة على وجهي باستمرار وقلبي حزين دون تحديد سببٍ بعينه

اعتاد.. أن يعطي ليأخذ مقابل

اعتدت.. أن أعطي بلا مقابل

اعتادني جزءًا من البيت بل ومن حياته

اعتدته فقط.. اعتدت وجوده .

- ندى.. مالك؟ مش معايا ليه؟ سرحانة في إيه؟

- أبدًا.. معاك اهو.. هاروح فين يعني .

- لا لا لا انتي مش معايا خالص.. شاردة فيين ؟

- إنت عارف احنا بقالنا أد إيه متجوزين يا فريد ؟

- سنين مرت هوا يا حبيبتي.. أجمل سنين عمري.. كفايه وجودك انتي والبنات في حياتي.. انتي مش مبسوطة معايا ولا إيه يا ندى؟

ـ صمت ـ

- ياااااه.. محتاجة التفكير ده كله عشان تردي يا ندى؟

- حقيقي أنا مش عارفة انا مبسوطة ولا اتعودت !

- اتعودتي ؟! اتعودتى على إيه؟ انتي مش مبسوطة معايا !!!

- فريد.. أنا محتاجة أكمل دراستي.. انت عارف أن ده حلمى اللي اتحرمت منه و انت وعدتني قبل الجواز تحققهولي ولما خلفت البنات أنا قعدت علشانهم.. وهما دلوقتي اتفطموا وبيتكلموا وبيروحوا الحضانة كمان.. متهيألى اقدر اروح الجامعة أنا بقى و اقدم في أي كليه من جديد ؟

كان وقع كلامي على فريد كمن صُفِعَ على غفلة فلجَّم لسانه وبرقت عيناه واتسعت مستفسرة دون التفوه ببنت فاه.. تعبير قرأته على ملامح فريد وأكدته عيناه.

- إفهمني يا فريد.. أنا اتجوزتك وانا كنت في البيت ومادخلتش الجامعة للظروف اللي انت عارفها وانت وعدتني تحقق لي حلمي و اكمل دراسة.. دلوقتي زميلاتي اتخرجوا من الجامعة ولسه ما اتخطبوش حتى.. أنا حققت لك السعادة اللي اتمنتها انت، وانت لسه قايل بلسانك اهو، وخلفت نور عيونا الاثنين، مش من حقي أنا كمان أكمل دراستي؟

-طيب ليه ياندى؟ ناقصك إيه؟ عاوزة تدرسي عشان إيه !!!

وظيفة ؟

فلوس؟

مكانة اجتماعية؟

كل ده عندك موجود ومن زمان كمان.. يبقى ليه بقى الجامعة ؟

-أنا محتاجة اشوف ناس – أتعلم –أقرأ – أتعامل مع بنى آدميين غير اللي في البيت والجيران اللي حتى دول ما بعرفهمش.. محتاجة يكون لي كيان غير إني زوجة وأم بس يا فريد .

- يعني انتي عاوزة تخرجي و تتعلمي وتعملى لنفسك كيان؟ حاااضر

تقدري تعملي ده من غير الجامعة.

-من غير الجامعة ازاي؟ و ليه لأ؟ ليه رااافض ؟

-يا ندى أنا بغير عليكي ومن الآخر كده مستحيل اسيبك للي رايح واللي جاي يتفرج عليكي.

- إيه؟ يتفرج على؟ هو اللي بيروح الجامعة بيبقى فرجه للناس ؟

-أيوة انتي مراتي أنا وبس.. وانا الوحيد اللي اقول إيه يتعمل وايه مايتعملش.. انتي ملكي أنا وبس . اللي انتي عاوزاه اجيبه لك هنا - هنا في بيتي في بيتي وبس – وخلص الكلام لحد هنا خلاص .

كانت كلماته كالخناجر التي طعنتني في كل أحلامي.. كالسيوف التي اقتطعت كل أمل لي في أن أتخلص من ذاك القيد الذهبي الذي يربطني بروتين وملل وبرودة حياتي.. والذي لم أعرف له سببًا حتى الآن..

إلى أن تملكني شعور مُلح بأنه قد آن الأوان لتحديد هويتي؟ ماذا أريد؟ عن ماذا أبحث؟ ما الذي ينقصني ولا أتحسس أبعاده؟ هناك شيء مفقود بداخلي غير محدد ليست الدراسة هي كل الأمر.. ولكن هناك شيئًا آخر لا أعلمه يسيطر على خواطري ومكنونات نفسي علي وحدتي وأفكاري بل وحياتي أيضًا .

وفي إحدى الليالي.. كان فريد كعادته يعمل على الكمبيوتر وأنا بجانبه أتصفح إحدى المجلات النسائية، غالبه النعاس فقام بالاسترخاء على

الشازلونج في الجانب الآخر من الغرفة وطلب منِّي أن أنبهه بعد أن أنتهي من إعداد كوبٍ من الشاي له.. ليسترح دقائق ومن ثمَ يواصل عمله.. وقد كانت بالفعل دقائق.. ما هي إلا دقائق وغط فريد في سبات عميق فقد كان مرهقًا طوال اليوم ولم يقاوم سلطان النوم.. فجئته بغطاءٍ خفيفٍ وأرحت يديه وقدميه على الشازلونج ثم توجهت لشاشه الجهاز لأوقف تشغيله..

في تلك اللحظة.. خطر على بالي أن أتطفل على هذا الجهاز، شيء من الفضول دفعني لأتأمل تلك الشاشة وأطلع على هذا العالم الساحر الذي يختبيء وراء تلك الشاشة الساحرة التي طالما قابلها فريد دون ملل أو ضجر بل ويظل يحادثها وتحادثه ساعات وساعات حديث صامت فقط بالعيون دون أن ينطق بكلمه أو حتى إيماءة.. حتى إنه لا يعي ما يفعله كل من حوله أو حوار أوجهه له أثناء عمله على الكومبيوتر.

إذًا.. لا بأس من أن أتلصص على استحياء على ذلك العالم المخبَّأ داخل الصندوق السحري بداخل منزلي منذ سنوات.. وقد أصبح قطعة أساسية بالبيت شأنه شأني تمامًا!

إذًا.. فلنتعارف أيها الرفيق الجماد الذي يعج بالحياة أكثر منِّي.. هيًا بنا نتعارف.. فكلانا هنا لراحة صاحب الدار المالك لنا جميعًا.. أنا ندى وأنت ؟!!

*****

لم أدرك كم من الوقت مضى وأنا أحاول أن أتعرَّف على الكمبيوتر بمفردي.. وقد بدوت كالقروي الساذج الذي يقف مشدوهًا فاغرًا فاه أمام كل جديد حينما قدم إلى مدينة العجائب، مدينة يتسارع كل من بها لإبهار الزائر لها بكل جديد ومستحدث لم يدركه بقريته.. حقًا فقد كنت أجهل تمامًا ذاك الجهاز ومعرفتي به لا تتعد كيفية تشغيله وإيقاف تشغيله فحسب أو تنظيف ما حوله من أتربة أو لملمة أوراق وما شابه ذلك بعد انتهاء فريد من العمل عليه.. إلى أن لاح النهار بضوئه فسارعت بإغلاق الشاشة ولم أستطع غلق تفكيري به من وقتها وقررت أن أتعرف عليه بشكل عملي وجادٍ.. فما لم أدركه خارج البيت سأدركه وأنا بالبيت، هكذا أراد فريد وهكذا سأفعل أنا ولكن بما يناسبني ودون اختياره هو...

بعد وقت بسيط وإلحاح كبير بالسؤال والاستفسار عن كل كبيرة وصغيرة بالكمبيوتر على فريد مرة وأخواته بل وأبنائهن الصغار أيضًا مرات.. كلما استطعت أن أعرف من أحدٍ شيء سعيت له ولم أخجل من طلب التعلُّم ممن هم أصغر منِّي.. فما يعرفه أبناء أخواته الصغار في سنوات عمرهم البسيطة لم أعرفه أنا وعمري أضعاف أعمارهم.. وخلال شهرٍ بالتقريب تعلمت أبجديات الكمبيوتر وأساسياته.. اجتهدت في سؤال كل من أعرف ومن له دراية به إلى أن أصبح له نصيب يومي من وقتي يبدأ بخروج فريد للعمل صباحًا ويظل قائمًا بتفكيري إلى أن أعود إليه مرة أخرى.. ويوم بعد يوم ازدادت ساعات رفقتي للكمبيوتر، أصبحنا صديقين.. لازمني حتى أثناء النوم كنت أفكر بما تعلمته عليه

وما الذي يتبقى لأعرفه.. صرت أتصارع وأتسابق مع الوقت لنيل أكبر قدرٍ من المعرفة عليه ومنه..

إلى أن طلبت من فريد أن يحضر لي جهاز لابتوب خاص بي حِرصًا على جهازه من أن أتعرض لخطأ ما في التشغيل أو الاستعمال فيكون تأثيره سلبًا على ملفاته أو أعماله الخاصة.. وحتى يتسنى لي العمل والتواصل من داخل البيت كما هي رغبته التي صرَّح بها منذ أيام.. وقد كان وأتى لي به فريد ولا أستطيع وصف التحول الذي حدث لي وقتها.. وكأني نلت نافذة على العالم متاحة لي طول الوقت كيفما أريد ووقتما أريد .

وجدت فيه عوضًا عن الدراسة التي حُرِمتُ منها بل ومُنِعت منها بإصرار من فريد عن مواصلتها أو استكمالها خارج نطاق البيت.. لم أعد أشعر بالوقت ولا بالملل منه، كنت أسرع في إنهاء التزاماتي اليومية للبيت والبنات وله أيضًا حتى أكون على موعدي في لقائي بمن عوَّضني عن فراغٍ كبيرٍ داخلي لم أكن أعلم مصدره .

أشبعت رغبتي في التعلم والدراسة بانتقاء عشوائي كل يوم.. ماذا سأقرأ؟ ماذا سأتعلم؟ ماذا سأسمع؟ ماذا سأشاهد ؟

إلى أن جاء يوم وقع اختياري بالصدفة على مقطوعة موسيقية صوفية تصاحبها كلمات للعالم الصوفي الجليل / جلال الدين الرومي..

من دون الحب..

كل الموسيقى ضجيج

كل الرقص جنون

كل العبادات عبء

أثارت تلك الكلمات انتباهي وجذبتني بشدة.. وكان لوقع الموسيقى المصاحبة بالناي شجن لمس داخلي شيئًا ما، حرك كوامن نفسي.. شجن خفي عجيب لم أفسره.

تذكرت أبي.. وأبيات الحلاج التي كانت تشجيني دون أن أعرف معناها.. أعدت تشغيل الموسيقى مرات ومرات.. تمعنت في المعنى ولم أستوضحه، ولكن كل ما شعرت به وقتها أن شيئًا ما سُلِبَ منِّي.. ما هو؟ لا أعلم

من دون الحب.. !!

الحب؟

أين هو منِّي؟

بل أين أنا منه؟

بل.. ماهو ذاك الحب؟

"نــدى"

لم أذق طعم النوم في تلك الليلة..

ظللت في مخدعي مفتوحة العينين.. خاملة الجسد.. شاردة الذهن.. أحملق في سقف الغرفة.. شريط سينمائي مرَّ أمامي على شاشة العرض التي انبثقت من داخلى وصارت أمامى كفيلمٍ أراه وأسابق كادراته بما لدي من مخزون من مشاهد أُخِذَت وتُرجِمَت وتقمص الأبطال أدوارهم جميعًا في سنوات عمري السابقة فاعلين بها ما يحلو لهم.. وكأن اسمي بهذا الفيلم كُتِبَ كدور بطولة ولم أنجز من مشاهده إلا الثانوي منها..

كم من العمر مضى؟ ماذا جينت من أحلامي؟ وكم تبقى لتحقيقها؟

وهل كانت لي أحلام بالفعل؟

أي أحلامٍ لمن اخُتطفت من سنوات عمر الطفولة لتصبح زوجه وأم.. من المراهقة وقلة الخبرة وعدم النضج.. إلى خبرات اكتسبتها بالفطرة.. لا تتعدى كيفيات فطرية تستطيع أي فتاة وامرأة في الكون أن تكتسبها..

كيف ترضعين طفلك

كيف تدللين زوجك

كيف تطهين طعامك

كيف تجيدين استقبال ضيوفك

كيف تكرّسين حياتك كزوجة وأم فقط!!

تلك هي الخبرات التي تعلمتها قصرا وليس اختيارًا منِّي..

أين أنا من ذلك؟ أنا بالفعل كل ذلك البيت الزوج الأبناء.. الأسرة

كل هذا "حب" أعلم ذلك.. ولكن هل هذا هو كل الحب؟

هل هو الحب الذي ينقصني؟

هل هناك حب يتعدى تلك المعاني أو تكون جزءًا منه؟

أم أنه محض تعوُّد.. ومِران تدربت عليه خلال سنوات عمري التي تعدت العشرين بسنوات.. كم كانت الأعوام برغم قصرها أو قلة عددها ثقيلة!

وكأن القدر يضعني في اختبار أو أن الله قدَّر لي أن أقع فريسة الحيرة والتفكير.. فليس كل تفكير إيجابي ولكن نحن مَن بأيدينا نحوِّله من سلبي إلى إيجابي.. أن نتحرى النقاط التي تحول مسار تفكيرنا..

ماذا نريد؟

ما الذي يشغلنا؟

وماذا بعد أن نعرف الإجابات؟؟

*****

- على فكرة يا ندى.. أنا مسافر كمان كام يوم النمسا ضمن بعثة مشتروات لماكينات الجديدة للمصنع.. جهّزي لي شنطتي يا حبيبتي اليومين دول من فضلك .

- فجأة كدة؟

- لأ مش فجأة ولا حاجة.. ما انا بقولك اهو بعد كام يوم – يبقى فجأه ازاي؟

-ها تقعد اد ايه؟

- شهر

- ايه؟ شهر؟؟ هاتسيبنا شهر لوحدنا يافريد ؟

- طب هاعمل إيه؟ هي أول مرة؟ يعني اخدك معايا؟ طب والبنات؟ هاخدهم كمان ؟!!!

-" ممتعضه " لأ طبعًا ماينفعش.. طيب ابقى كلمني كل يوم يا فريد – اتطمن علينا.

فريد : " مبتسمًا " أكيد.

سافر فريد في الموعد المحدد. وكعادتي كل مرة قبل سفره الذي اعتدت عليه والذي لم يكن يطول أكثر من أيام تُعَد على أصابع اليد.. ودَّعته بدعوات وأمنيات لذهابه وعودته لنا بخير.. وإن كان قلبي يساوره

القلق هذه المرة ولا أعلم سببًا له.. وبمجرد وصوله النمسا هاتفني لمدة لا تقل عن نصف الساعة حكى لي فيها تفاصيل كل دقيقة بعد أن غادر مصر.. منذ أن ودَّعتُه في مطار القاهرة، وكيف كانت رحلته مرهِقة ليس لطول السفر ولكن بسبب من رافقته بالمقعد المجاور له في الطائرة.. كانت امرأة عجوزة يبدو من حديثه عنها ومعها أنها المرة الأولى لها في ركوب الطائرة.. وأنها مسافرة لرحلة علاجية حيث ينتظرها هناك ابنها وزوجته وأولاده.. وكيف كانت تنام وتستيقظ كل عدة دقائق مفزوعة وممسكة بيده على غفلة مما أصابه بتوتر نتج عنه اعتلال مزاجه طوال الرحلة وحتى بعد أن وصل وقد تمكَّن الصداع من رأسه بل فتك بها فتكًا..

تكرر اتصاله بي تاني يوم.. وثالث يوم.. لدقائق معدودة وكأنه يتصل لسد خانة فقط.. أو لواجب ما عليه أداؤه.. ومن ثم مرَّ يومان وثلاثة وأربعة أيام ولا اتصال واحد فقط للاطمئنان عليَّ أو على بناته..

في اليوم الخامس اتصل بي وما وجدت نفسي إلا وانا أمطره بوابل من العتاب واللوم والشجار أيضًا.. ولم يكن رده سوى لطمة صُفِعَ بها قلبي قبل أن تصفع مسامعي..

قال لي "صارخًا" : حصل إيه يا ندى !

كل شوية نكد نكد نكد.. حتى وانا مسافر عاوزة تحمليني مشكلة قلقك وتوترك ؟

أنا جاي اشتغل ولا اقعد اونّسك بالتليفون ؟

...

أنهيت المكالمة التليفونية.. وأغلقت الاتصال ولكن فُتِحَت علامات استفهام كثيرة.. عن دموع لم تتوقف ولم أحدد هل سببها الاتصال الأخير؟ أم أنه كان بمثابة الحجر المحرك لبحيرة راكدة من المشاعر الباردة التي لم يأتِ أوان تحريكها بعد!!

هل عدم اتصاله لأيام هو السبب؟

هل رده هو السبب؟

هل اشتياقي له هو السبب؟

لا.. لن أكذب على نفسي أكثر من ذلك.. لم أشتَقْ إليه يومًا.. ولم أشعر بلهفة للقائه.. فقط تعودت على وجوده كركنٍ أساسي في حياتي وتركيبتها الاجتماعية التي لم أختَرها بل وجدت نفسي في إطارها باختيار والداي مرة وباختياراهما بتحريض من المجتمع مرة أخرى..

كنت أعلم جيدًا أن سنوات حياتي معه ومسئولية تربية بنتيّ وتعليمهما كانت كعربات القطار تجر بعضها البعض ولو أن عربة تخلّت عن الركب لصارت كارثة.. جميع العربات تسير في اتجاه العربة الأولى وهو وحده من يتحكم بقيادتها كسائق ماهر وما أنا سوى إحدى تلك العربات التي تنقاد وراءه، وحده هو القائد، هو المسيطر، هو من بيده السير والوقوف وقتما شاء وأينما شاء .

ظل يتملكني شعور خفيٌ وقويٌ بأن ينقصني شيء كبير.. ليس سفر فريد هو السبب.. فأنا أعرف أنها أيام ويعود، ولكن ما أفتقده اشعر بمكانه خاليًا داخلي فكرًا وروحًا.. إحساس صعب الوصف - شيء ما يحدث بداخلي.. يناديني في الخفاء وفي الأحلام خاصة.. أثناء نومي لا يكاد يخلو أسبوع من حُلمٍ أرى فيه كيانًا ما ولا أرى ملامحه ولكن همسه يعنّفني وبشدة.. يؤنبني عن عدم بحثي عنه. صارت أحلام لا تبارحني.. أشعر دائمًا أن سياجًا ما تحوطني.. مجهول قيوده حريرية وقوية معًا.. لا تؤلمني بل على العكس أستعذبها.. قيدًا أحببته وإن كنت أجهله لكني أستشعره ولا أستطيع تحديد معالمه..

أصبحت كالمسحورة

نعم مسحورة ولا أعلم من أين ولا كيف ولا متى بدأ هذا الشعور يتملكني..

كل ما أثق به هو أنني غير راضية عن نفسي ولا حياتي – قلوقة، متمرده في صمت - لم أستطع تحديد هذا الشعور ولا نكرانه.. يزداد هذا الشعور ويتضح جليًا عند قراءتي أو سماعي لكلمات حانية لم يزل قلبي يخفق بشدة لسماع كلمات الحب والوله وإن فاجأني القول ولم أتأهب لسماعه.. يأخذني الفكر بعيدًا إلى ما وراء الموقف، أشرد، فلا أجدني على الأرض ولا أفهم لغة أهل الأرض.. هناك معانٍ خاصة تهيم بي وأهيم بها، أستمع إلى موسيقى خاصة غير محددة النغمات ولا المصدر ولا الالات فقط كل ما أدركه أنها تسكرني، تشجيني، ترحل بي

إلى عوالم لا أعرفها، ولكن بها أجد مستقرًا نفسيًا وروحيًا.. أجد نفسي وروحي معها وترتبط في مخيلتي دومًا بأبي.. وأذكر أبيات هي لي دعاء ورجاء لله.. من أنشودة غنَّتها أم كلثوم في فيلم رابعة العدوية.. وكان أبي يغنيها أيضًا لي مبتسمًا عند كلمة " ندا" وكأنه يشير لي بها

لغيرك ما مددت يدا وغيرك لا يفيض" ند ا "

وليس يضيق بابك بي فكيف ترد من قصد فيارب.. لا ترد لي يدا وكون لي عونًا في حيرتي.

"ليـــلى "

ما أصعبه إحساس للرجل أن يشعر بأنه أصبح لامرأته مجرد عائل لها ولبيتها، مسئول فقط عن تدبير أمور المعيشة فقط.. نعم بعد أن تزوجت ندى وعشت معها أجمل شهر عسل لم أشعر إطلاقًا أنني لست أول رجلٍ بحياتها لأنها بالفعل كانت لا تزال بِكرًا، بِكرًا في مشاعرها والتعبير عنها، وخجلها في الإفصاح أو حتى استيعابها لي كزوج وإرضاء رغبتي لها باستحياء كان يرضي رجولتي ويسعدني بإحساس أني من امتلك هذه الزهرة الندية.. فكانت لي أغلى ما امتلكته في حياتي .

كان إحساس ينال من سعادتي ورغبتي بها كحبيبة وزوجة.. لا أدري لما تسرب البرود في علاقتنا بهذه السرعة بعد أن أنجبنا البنتين، صارت تثور على أتفه الأسباب ولم أعهدها إطلاقًا عصبية من قبل، ومع ذلك لم يكن صوتها ليعلو في وجودي إطلاقًا كانت محتفظة بسِماتها الخاصة جدًا من هدوء ونعومة حتى في عصبيتها التي كنت أعرفها من حركة يديها أو عينيها أو لجلجة حروفها في الكلام إثر غضبها والذي بتُّ لا أعرف له سببًا معينًا.. وإن كان كل ما يتضح لي هو سبب عدم موافقتي لها على استكمال دراستها بالجامعة.. فقد كنت أغار عليها بشدة.. أغار عليها أحيانًا من أخواتي البنات أيضًا.. كنت لا أريد لأحد أن يراها أو يستمتع بجمالها ولو بالنظر فقط غيري.. فأنا زوجها ورب بيتها ومالك قلبها وأبو ابنتيها لا حق لأحد فيها سواي فلم ولن أسمح لها أبدًا بالخروج للجامعة لتحتك بالشباب والرجال من كل لون وسن

فأنا أعلم الرجال جيدًا.. كأي رجلٍ لن يترك لامرأة في جمالها أن تمر من أمامه دون أن يلتهمها خياله قبل عينيه، لا لن تكون ندى لسواي ولو بنظرة.

كانت مأمورية العمل إلى النمسا في توقيتها المناسب لنا.. فقد كنت أرغب في تجديد حالة البرود والركود التي طرأت على حياتي مؤخرًا أنا وندى والتي لم أكن اعتدت عليها إلا مرغمًا كاسرًا بداخلي فريد الذي لا يرضيه سوى أن يفعل ما يريد لا من يرغمه غيره عليه.. ولكن حبي لندى جعلني أرضخ للبيت وللأسرة.. وبالفعل لم أكن لاتركها لسبب أو حجة أهم من العمل وما يلزمه من سفر للنمسا بخصوص استيراد قطع غيار لآلات وشراء ماكينات ومعدات جديدة للمصنع الذي أعمل به ضمن مجموعة من المهندسين والاستشاريين.. وفي الموعد المحدد سافرت .

وصلت النمسا مساءً، ونزلت بفندق بوسط العاصمة بمحض صدفة لم تخطر على بالي.. ولم أسعَ لها فبديهي أن المصنع هو من يقوم بجميع الحجوزات الخاصة بإقامة للوفد الذي أتى خصيصًا لتلك العملية.. كنت مرهقًا للغاية وأشعر بأن رأسي مُحمَّلة بأطنان من الحجارة تتصارع وترتطم ببعضها البعض جراء إزعاج رفيقتي بالسفر بالإكراه.. تلك العجوز التي أصرت على أن أرافقها حتى سلمتها بيدي إلى ابنها الذي كان ينتظرها بالمطار بخوف وقلق شديد عليها حيث أنها امرأة مُسِنَّة ومريضة وهي بالمقام الأول أمه التي بالتأكيد "وحشته جدًا ".. والتي بدت كطفلة باعدوها عن أبويها وطال فراقهما لها، وما إن

رأت ابنها حتى هرعت إليه بوداعة وتودد طفلة تتمسح بأبيها حبًا وشوقًا ودلالًا وكأن من كانت تصرخ وتزعج كل من بالطائرة وليس أنا وحدي.. إنسانة أخرى غير تلك الوديعة !!

وأثناء تدوين بياناتنا أنا وزملائي بالكاونتر الخاص باستقبال النزلاء الجدد.. وبرغم الإرهاق والإجهاد والرغبة المميتة في أن أصل إلى غرفتي بسرعة الريح لأنال قسطًا من النوم.. جذبني وخطف لب عقلي وجهٌ مبتسمًا وعينان زرقاوان لامعتان ملؤهما حيوية وجاذبية.. وجه أعرفه ولم أنسَه مطلقًا بيد أنه ازداد جمالًا وبهاءً مع مرور السنوات، " ليلى".. موظفة خدمة النزلاء بالأوتيل.. تلك الابتسامة التي فتحت براكين الذكريات والأشواق بشكل عشوائي غوغائي غير منتظم.. تبعثر كل ما بداخلي من صيحات فرحة وتنهيدات عشق قديمة وشهيق لأحلام مضت وظننتها بُليَت وذَبُلَت ونال منها الزمن.. وجدتني كطفلٍ وجد ضالته في مدينة ملاهي صحتُ "ليـــلى!!"

ويبدو أنني بالفعل لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقذف بالقلم من يدي وأتسابق مع أنفاسي للوصول إلى يديها لأصافحها وربما لتمنيت أن أحتضنها بكل قوة الشوق واللهفة والسنوات التي مضت دونها .

- مش ممكن أنا مش مصدق عينيا..معقول؟ ليلى؟ أنا بحلم وّلا صاحي؟

- مش معقول؟ فريد !! ازاي؟ مش مصدقة عينيا؟ انت هنا ؟وبعد العمر ده في النمسا يا فريد ؟

-أنا اللي مش مصدق.. انتي لسه هنا في النمسا ياليلى؟ معقول السنين دي كلها تبقى هنا؟ عشان اجي أنا صدفة واقابلك ؟

- سنين عدت عليك وعليا.. بس انت فعلًا مبسوط للصدفة دي يا فريد ؟

-بتسأليني؟ سنين عدت ازاي وإمتى مش عارف.. الشغل والسفر والمشاريع نسوني كل حاجة خلوني ما افكرش في نفسي حتى.. بس مش هاينسَوني أول حب في حياتي .

-مافيش فايدة فيك ! لسه بتقول أول حب ! وبردو الشغل والسفر والمشاريع بس؟

- أكيد يا ليلي مش ممكن انساكي..

-إنت أكيد اتجوزت وخلّفت كمان – صح؟

*****

"ليلى".. أول من خفق لها قلبي.. أول من شعرت معها إحساس الحب والرغبة تجاه الجنس الآخر إحساس تولَّد معي بسببها، ولأول مرة أشعر أني شاب ولي مشاعر موجهة لأنثى بعينها.. أول دقات قلب وأول نظرة حب.. شعرت بها كانت لليلى .

بنت الجيران..

وفي الغربة يصبح الجيران بمثابة الأهل بل والأقرب من الأهل أحيانًا.. كانت طبيعة عمل أبي تتطلب أن يتنقل حسب احتياج العمل له.. فعمله كمهندس مدني تابع لمصنع حكومي معروف بالدولة ومجاله يتمركز في مواقع الإنشاء والبناء من بدايتها وحتى تمام العمل وتشغيلها.. كان سببًا لتركنا القاهرة ولبيتنا بمنزل العائلة بالظاهر وانتقالنا إلى أسوان حيث كانت دراستي الابتدائية والإعدادية هناك بمدارسها.. وأذكر أن عمل أبي هنا في أسوان كان سببًا لاحتدام الشجار بين أهل أمي وبين أبي فهم يعتبرون سفر ابنتهم مع زوجها إلى أسوان "غربة" هم لا يرضونها لابنتهم حتى وإن كانت مع زوجها وأبنائها.. وما كان من أبي إلا أن وضعهم في موقف اختيار بين أمرين حلوهما مُرّ بالنسبة لهم.. وهو أن نذهب جميعًا بصحبته إلى مقر عمله الجديد أو أن يسافر هو بمفرده ونكون جميعًا مسئولية في عنق جدي وأخوالي طيلة فتره عملة بأسوان ولا يعرف إلى متى ستمتد على أن يزورنا يومين ثلاثة كل شهر أو أكثر حسب ظروف عمله فالمسافة ليست بالهينة حتى يتسنى له القدوم على فترات متقاربة..

كان الاختيار الثاني من الصعوبة تقبُّله فقد كنت ولدًا واحدًا على ثلاثة بنات أصغر منِّي وأمي لاتزال بمقتبل العمر ولن تقدر على تربيتنا بدون رجل أو بالأصح بدون أبي.. مسئولية أربعة أبناء صغار وأمهم ليست بالهينة على جدي وأخوالي.. فلا مناص لهم من الموافقة على سفرنا جميعًا مع أبي .

وقد كان وسافرنا مع أبي إلى أسوان.. وهناك رأيتها.. أول من وقعت عيني عليها في السكن الجديد.. ابنة صاحب المنزل وجارنا النوبي "عم مرزوق " كان رجلًا قصير القامة غليظ الصوت معقود الحاجبين ينال منهما الشيب كما نال من شعر رأسه.. إذا ابتسم تبدَّلت ملامحه على النقيض فتشعر أنه لا يعرف التكشيرة من شدة بياض أسنانه والتي توحي للرائي بأن الكون يبتسم معه لصفائها.. ولكنه سرعان ما يعود لطبيعته حال تكلم في أمور المال أو الإيجار أو البيع والشراء وهو من يمتلك بقالة وعطارة أسفل منزله ذي الألوان المميزة بين بيوت الشارع كلها.. كان له مبدأ..

"أن يصرف ويكلف ليحصد ويكسب -ادفع قرش وانت عارف رايح فين واستنى مكانه عشرة قروش "

كان لا يعطي إلا إذا ضمنَ الرد أو المردود من هذا العطاء فعُرِفَ بين أبناء البلده بالبخل الشديد .

كانت ليلى ابنته الوحيدة، لم ينجب هو وزوجته غيرها بعد أن تأخر الإنجاب لديهما سنوات بعد زواجهما لأسباب يعلمها الله.. وجزاء صبرهما كافأهما على كبرهما بأجمل بنات الحي وإن صح أن أقول أجمل بنات أسوان بأكملها في عيني.

كانت ليست أجملهن ملامح فقط بل أكثرهن جاذبية ونضارة؛ رشيقة القدّ، غير ممتلئة ولا نحيفة، تميزت ببشرة سمراء لامعة تنبض بالحياة.. شفتاها الممتلئتان تنازعان حبتين من الفراولة في نضارتهما

واشتهاء من يراهما ليتذوق حلاوتهما وما تخفياه وراءهما من ابتسامة لحبات لؤلؤ أبدع الخالق في رصها لتكون لبنة لابتسامة لا يقاوم انعكاسها على وجه كل من ينظر إليها فيصير أسيرًا لها مكبَّلًا بعينيْ فرعونيتين بزرقة النيل الصافي.. وهي نتيجة جينات لجدتها التركية التي حازت عقل وقلب وأملاك جدها لوالدها.. جمال رباني فطري أُحيط بشعر أجعد.. ولأول مرة أشعر بجمال الشعر غير الأملس وهو ما يكون من علامات جمال الفتاة وقتئذ.. كانت جعداء الشعر تبدو كقطة برية شرسة لمن يقترب منها عنوة.. أليفة لمن تأنس له .

كم كانت حلم مراهقتي هي.. ككل أقراني كنت أحلم بها وأتخيلها وهي تتأبط ذراعي ونتجول بالحدائق سويًا.. كم غفت على كتفي بالسينما.. كم أطعمتها بيدي وهي متوسدة صدري أسفل الصفصافة العجوز على شط النيل بأسوان.. كم.. وكم.. وكم..

لكنه كان حُلمًا مبتورًا؛ فقد كانت ليلى بالثانوية العامة وقت أن كنت أنا لازلت تلميذًا بالمرحلة الابتدائية.. فقد كانت تكبرني بأكثر من ست أو سبع سنوات وهي سنوات كافية لتقتل تفكيري فيها فيما هو أبعد من خيالٍ مراهق لم يعد طفلًا ولم يصبح رجلًا بعد..

هي على قمة الجمال والشباب وأنا على أعتاب الرجولة كما كان خيالي يصوِّر لي وقتها.. كل ما نلته من مظاهر الرجولة هو أن خط شاربي بخيالٍ أخضرٍ أسفل أنفي وهو ما يوحي ويبشر بأنني ها قد اقتربت من الدخول إلى عالم الذكور.. ولكن هل ستقتنع بي ليلي يومًا ما .

"كافية العصارى"

لم يكن لي ونيس في حياتي بعد ابنتيّ وسفر فريد سوى صندوق الدنيا كما تخيلته وصار لي هو بالفعل صندوق الدنيا.. نافذتي على العالم الخارجي ليس خارج بيتي فقط بل خارج أسوار حياتي وبيتي ومجتمعي ككل.. استمررت في تعلُّمي كل ما يتعلق بالكمبيوتر من أساسيات للتعامل معه ومن برامج وإنترنت.. صرت أبحث عن فيديوهات تعليمية لجميع البرامج.. اشتهيت التعلُّم لكل ما أجده أمامي وكأني أحاول أن أثبت لنفسي أني قادرة التعلم والاستيعاب.. كنوعٍ من التعويض عن الدراسة التي منعت منها واستسلمت راضخة لذلك المنع.. امتلأ وقتي بعد أن كان الفراغ يقتلني.. أصبحت وأمست عادتي اليومية بل طقسًا من طقوس حياتي اليومية متابعة مواقع الإنترنت والبحث عن الجديد دائمًا في كل ما يجذب انتباهي واهتمامي..

وأثناء تجولي ذات يوم على صفحاته.. أثار انتباهي عنوان لجروب نسائي..

"كافية العصاري"

من اسمه تخيلت أنه ملتقى نسائي للثرثرة والقضاء على وقت الفراغ بل وربما يكون "جروب" تافهًا أيضًا فما أكثر الجروبات التي امتلأت بها الشاشة العنكبوتية والتي ترتكز على الشات وتبادل الأغاني وما شابه ذلك.. وكحب استطلاع سجَّلت(دخول) به لمعرفة ما إذا كان عنوانه

يدل على مضمونه الواضح أي ملتقى وقت العصر.. أم أنه قد يوحي بالعصاري معنى آخر زمنيًا وله أبعاده وليس فقط المعنى الواضح، قررت أن أتجول به وقد كان.. وقمت بفتح حساب للجروب.. تصفحت موضوعاته التي نُقِشَت من قِبَل العضوات من قبل، وجدتني أعقِّب على بعضها مرة منتقدة وكثيرًا مؤيدة.

بعد فترة ليست بالطويلة كنت من أهم المشاركات به.. فقد وجدت أن عضواته يتناسبن إلى حدٍّ ما؛ فكرًا وعمرًا واهتمامات معي - فمن خلاله تعرفت بأخريات، قد تتشابه مفردات حياتنا إلى حدٍّ كبير وقد تختلف إلى حدٍّ ما؛ فمن الواضح أن الجميع يعاني الفراغ والوحدة والغربة.. هن أثَّرن في حياتي منذ عرفتهن ذاك اليوم.. صارت بيننا علاقات وطيدة بسرعة عجيبة ربما كانت سببها هو الاحتياج المُلِحّ لكل منا للأخريات.. صرنا لا نفترق عن بعض إلا وقت النوم ونستيقظ لنتواصل عما فاتنا أثناء الليل.. أو بالأحرى بعد الفجر حيث كان لقاؤنا يمتد كل يوم إلى اليوم الذي ما يليه غالبًا.. فلم نكن جميعًا في مكانٍ واحدٍ.. ولا توقيتنا واحد.. فالصباح عند إحدانا كان منتصف الليل لغيرها وبالتالي صار التواصل طوال ساعات اليوم متاحًا لنا..

أصبحنا كأسرة واحدة أخوات مابين الكبيرة والوسطى والصغرى، والأم الروحية فيه كانت هي مدام " نشوى " أو أنوش كما أطلقنا عليها.. هى امرأة أربعينية جامعية ومثقفة خفيفة الظل ذكية فيما بدا من تعليقاتها أثناء حوارتنا الكتابية برزت لي تلك الصفات.. درسَتْ في كلية العلوم ونالت درجة الماجستير في تخصص النباتات.. وهو ما كان

يجعلها دائمًا في حالة حب وعشق للطبيعة والخُضرة كما قالت.. وفاة زوجها وانشغال أبنائها عنها كانا أهم الأسباب لاندماجها بالنت ومعرفة كل أموره واجتهادها باستمرار لمعرفة الجديد والغريب في عالمه: فقد كانت طيلة الوقت "أونلاين" على اتصالٍ دائمٍ بنا جميعًا.. وربما غيرنا أيضًا؛ فبالرغم من صعوبة البدايات في تعرُّفها وتعلُّمها لمراسم الدخول إلى عالم الإنترنت إلا أن شغفها به للقضاء على الفراغ وميلها للاستزادة من التعلُّم والتعرُّف على عالم النباتات والطبيعة والذي كانت تسعى لنيل درجة الدكتوراه فيه وهو ما لم تتِحه لها ظروف الحياة والزواج وما تبعه من وفاة زوجها والتزامها بتربية أبنائها من بعده.. كان كل هذا دافعًا لها لمعايشة الإنترنت ليل نهار، تستنشق عبيرًا أحبته لدراستها وهواياتها ولا بأس من المزيد من العلاقات النسائية إلى جانب هذا.. لم تتردد إحدانا يومًا في البوح لها بكل ما يؤلمها أو ما قد يحدد مسار حياتها وزوجها وأبنائها.. كانت محل ثقة عمياء من الجميع.. وإن كنت أشعر أني مميزة لها بشكل خاص.. ولكن لعله شعور كل منا على حدة..

فقد كانت بئر أسرار للجميع..

تعددت اللقاءات والحكايات وتنوعت أسباب اشتراك عضوات الجروب وتحت مظلة الاحتياج والفراغ - اجتمعن..

جميعهن مغتربات من جنسيات متعددة.. جمعتهن الغربة في مكانٍ واحدٍ ليصبح لهن وطنًا باختيارهن ويصبح عالمهن الافتراضي الذي يلتقين فيه كلما اشتقْنَ للغة تجمعهمن فقل ما وجدت في الغربة ما

يجمعك بشبيهٍ لك.. وليست فقط اللغة التي تشتاق للحديث بها ولا اللهجة المخصصة لكل بلد وربما لكل فئة عن الأخرى.. بل هناك الأقوى والأكثر احتياجًا له في غربتك.. وغربتك ليست عن وطنك فقط بل ربما تكن بوطنك وتشعر بالغربة.. وهي غربة النفس التي هي أشد قسوة عن غربة المكان..

كانت لكل منهن حكاية ومشكلة تؤرقها في حياتها.. اجتمع الكل على الهدف ذاته -وجع الغربة والاغتراب - كلهن تغرَّبْنَ عن الوطن فكان الجروب هو لهن "وطنًا".

*****

(ماريان)

"ماريان" معلمة موسيقى بالإمارات العربية المتحدة، تعيش فيها بمفردها حياة مملة رتيبة الإيقاع.. نغماتها على وترٍ واحدٍ لا تتغير؛ فمنذ أن تخرجت من أكثر من اثني عشر عامًا.. لم تشأ أن تضيع فرصة السفر التي جاءتها فور إعلان نتيجة البكالوريوس.. فهي فرصة يحلم بها الكثير من الشباب والشابات.. ضربت بعرض الحائط كلام أبويها وأهلها في كون السفر سيضيع عليها "النصيب" كما هو متعارف عليه في بيئتنا كشرقيين ولا يجوز لها السفر سوى بصحبة زوجها أو إذنه.. المهم أن يكون هناك زوج تتبع له قبل السفر.. إذًا عليها الانتظار حتى تتزوج أولًا ثم تبدأ التفكير في تحقيق أحلامها سواء في السفر أو في غيره.. عجيب أمر الآباء والأمهات فهم يرون الدنيا بمنظورين فلو

تذكروا وقتما كانوا في مثل عمرها وما كانت عليه أحلامهم لوجدوا تناقضًا بين ما تمنوه وبين ما يطبقونه مع أبنائهم ربما بوازع الخوف عليهم أو عدم الثقة في مجابهتهم للحياة بلا خبرات سابقة.. ولكن أين لهم من الخبرات مالم يعيشوا التجارب ويخطئوا ويصيبوا.. أين لهم من معرفة لذة النجاح إن لم يتجرعوا مرارة الفشل .

لم تَعِر ماريان كلامهم انتباهًا لما كانت مقتنعة به وتعمل جاهدة على إثباته لنفسها بالتجربة العملية قبل أن تثبته للناس تأكيدًا على فهمهم القاصر على مفاهيم "عفا عليها الزمن " كقولها..

أرادت أن تتحدى الكل بآرائها ومفاهيمها الخاصة عن الحرية والمساواة وبناء الذات واستقلالية الشخصية وسافرت بالفعل بمفردها وبدأت حياتها العملية بالغربة.. بالعمل كمُدرِّسة موسيقى بمدرسة بنات.. سنوات تجر شبيهاتها تتوالى ما بين إجازات لأيام وتواصل عودتها للعمل لسنوات اعتادت فيها أن تَطّلع أو ربما يَطّلع عليها وجبة دسمة تنتظرها بانتظام مع إجازاتها من راغبي الزواج.. فهي تبدو كطبقٍ شهي دسم لمن يطمح في الارتباط والزواج بمن تشاركه بل قد يكون هو من يشاركها حياتها عمليًا وماديًا في آنٍ واحدٍ.. لم ترضَ عن أيٍّ منهم بالطبع ففتاة مثلها تحدَّت الكون لإثبات حقها في حريتها واستقلاليتها كيف لها أن ترضى بمن يراها في فاترينة عرض لتحديد صلاحيتها للهدف المرجو من عدمه !! من يجد فيها صفقة رابحة لتحقيق مآربه وربما تطلعاته بأيسر الطرق وأقل مجهود.. فمثلها اقتربت من النصف الثاني للعقد الرابع من العمر.. ولديها المال.. والغربة أبعدتها عمن قد تجد فيهم شريكًا

لحياتها تنتقيه أو يختاره قلبها وعقلها معًا لا أن يُفرَض عليها بحكم العادات والتقاليد وما يجب أن تكون عليه فتاة في سنِّها من وضعٍ اجتماعي يرضي الأهل والمحيطين بهم .

انعكست حالة الركود والملل على حياتها كلها.. حتى الدروس التي كانت تلقن بها تلميذاتها ما كانت إلا متكررة رتيبة الرتم والإيقاع لكثرة ترددها على مسامعها ولم يطرأ عليها أو على دروسها شيء من التجديد أو التغيير.. حتى جاء الوقت الذي قالت فيه لنفسها : ها قد حان وقت التغيير؟ حان الوقت لتقتنص ماتبقى من لحظات السعادة التي قد تكون تلاشت وتكاد تندثر لكثرة إهمالها لها ولنفسها أيضًا.. ها قد حان الوقت للتخلص من الشعيرات البيضاء التي بدأت تزحف على جبينها وتعتلي غُرَّتها هي ورفيقاتها من الخطوط الرفيعة التي تنسج خيوط العنكبوت لتجاعيدٍ قد تتمكن يومًا ما من ملامحها.. إذًا حان الوقت لتجهيز جيش من الصبغات والكريمات لمواجهة العدوان القادم على شبابها و رونقها في دهاءٍ ومكر.

ولأن شأنها شأن كل المغتربين -عن أوطانهم بحثًا عن الرزق وفرص العمل وهروبًا من ضغوط الحياة في بلادهم التي لم يستطيعوا فيها توفير الحياة الرغدة أو تحقيق حُلم ما.. فقطعًا هم ليسوا برحلة سياحية تمتد لأعوام – كان جهاز الكمبيوتر لها كل عالمها.. هو نافذتها على العالم واتصالها بالأهل والأصدقاء ومستجدات العالم من حولها.. وقد شارت عليها إحدى زميلاتها بالعمل بأن تلجأ لأحد مواقع التواصل الاجتماعي لتتعرف على أنسب الطرق للوصول إلى "نيولوك" يخلِّصها

مما يؤرقها ويؤرق أي أنثى من مشاكل الجمال والتغيير من مظهرها بشكل عام.. وفي أثناء البحث عمًا من أجله طرقت باب الإنترنت.. كانت إجابته في ذاك الجروب الذي اجتمعنا فيه الآن جميعًا.. وكما بدأت أنا فيه.. كانت بدايتها لمعرفة العضوات .

كانت المساحة الأكبر من حوارتنا عن مشاكل البشرة والشعر والحياة الزوجية والرجال والأبناء بالطبع.. فمن تعمل منا خارج أوقات تواجدنا على النت لا هي بحاجة للحديث عن العمل ولكن هي بحاجة لمكان يجمعها بأهل وأسرة، مكان يشبه بيت العيلة في الواقع..

و في أحد الأيام كنا نتندر على أيام العزوبية -كما كنا نحب أن نطلق عليها فيما بيننا - وقتما كنا لازلن في بيوت أهالينا، لا مسئولية ترهقنا سوى اهتمامنا بملبسنا وزينتنا وأين سنقضي نهاية هذا الأسبوع وتداول أخبار من ارتبطت ومن فركشت ارتباطها.. قالت ماريان:

- أنا إيه اللي يخلليني اتوحل زيكم واقعد اعيط كده هههههه.. أنا مع نفسي ومِلك نفسي لا راجل يقولي رايحه فين ولا عيل يسهرني طول الليل.. قرشي لنفسي ودماغي كمان لنفسي.. عاجبكم الولايا يزيدوا واحدة زيكم " وتنفجر ضاحكة مستثيرة فينا كل أنواع الأحقاد والغل المغلف بابتسامة وسخرية أيضًا بدت من أسلوب وألفاظ كتابتها لنا بالقطع "

- ياسلام يا ماريان.. يعني عاوزة تقولي انك مش نفسك في اللي يدلعك كده وتناغشيه ويونّس وحدتك كل ليله بدل ما انتي مذنبة نفسك معانا ؟

- هههههه على أساس أن انتو هنا بتعملوا إيه ؟؟ بتناغشوا اجوازكم هههههههه ولا جايين تواسوني يا ندى هههههههه ضحكتيني بجد.

لم تكن مخطئة بالفعل.. ولكن أنا من أحببت أن أهون على نفسي وعلى صديقاتي ونفتح مجالًا لماريان تحكي لنا أكثر..

- مافيناش من زعل يابنات.. انتو فيكم اللي اتطلقت واتجوزت واللي على وَشَك طلاق واللي عاوزة ومش عارفة عشان العيال والناس وكلام الناس..

وانتوا عارفين ان جوازنا جواز نصارى.. يعني مافيهوش رجعة يبقى اللي هاتجوزه ده تدبيسة عمري لحد ما اروح الجبَّانة.. يبقى استعجل ليه؟ لما يجي اللي على كيفي اتجوز وبشروطي أنا مش شروطه ولا شروط أهلي ولا أهله.. صدقوني مش هاصدق إلا عقلي قبل قلبي.. مش معنى إني مدرسة مزيكا إني ابقى هوائية ورومانسية !!

ومع ذلك مين قال إني ما بحنّش لراجل يحبني ويحافظ عليَّ واجيب منه الولد والبنت.. مين قال إني مش بحلم إني الاقي اللي في حضنه أنسى همي ودنيتي كلها.. أحس بالأمان والدفا.. أحس بأنوثتي اللي قرَّبت تختفي ومش باقي منها غير اسمي مين قال إني مش بحلم أكون أم واربّي

ولادي كويس واسهر عليهم وهما تعابنين وهما بيذاكروا وافرح واتنطط معاهم لما يلعبوا ولا لما ينجحوا.. أقرب منهم واخبّيهم في حضني زي ما ابوهم حاميني بحضنه.. ومع كل ده بخاف.. بخاف عشان اتحصل على ده يبقى المقابل عمري كله افنيه في جوازة مع راجل ماينضمنش بعد ما ابقى مراته خلاص .

بالفعل هي لم ولن تثق إلا بمن يشير إليه عقلها قبل قلبها.. فبرغم دراستها وحبها للموسيقى إلا أنها لم تأخذ منها سوى جدة دقات الطبول.. وقرع الآلات النحاسية وقت تحديها للزمن والمعتقدات البالية الراسخة في أذهان العموم.. اشتاقت إلى نغمات التانجو الحالمة وسيمفونيات بيتهوفن الحزينة تشد من أوتار قلبها لتبدأ معزوفتها الخاصة.. التي طالما اشتدت وتأهّبت لعزف تلك المعزوفة ليكتمل لحنها.. لتشدو بها عوضًا عما استُنزِفَ من عمرها بالغربة..

لم تكن"ماريان" وحدها من تحتاج إلى الاندماج بغيرها من النساء ممن يَكُنَّ مختلفات عنها فتخرج من جو العمل والروتين ولو للحظات في عالم افتراضي.. كنت أنا أيضًا وشذا ونجوى.

*****

(شذا)..

هي من كانت أقربهن إلى قلبي.. استشعرت حياتها تشبه حياتي إلى حدٍّ كبير جدًا من حيث النشأة والارتباط بشريك الحياة.. كنت أرى بعضًا

من حياتها جزءًا من حياتي بل الأخطر أني تخوفت من أن يصبح مستقبل حياتي الزوجية هو ما مرت به شذا.. فصرت أترقب ردود أفعالها ومواقفها تجاه زوجها ومنه أيضًا تحسُبا لأن أمرَ بها في وقت أقرب مما أتصور.. فارتباطها به لم يفرق الكثير عن ارتباطي بوجدي أو فريد.. بيد أن كليهما كنت وكانت "شذا" له هي وجبة شهية في ليل غربة واغتراب جائع لكل معاني الاحتياج واللهفة والتملك..

نشأت شذا منذ طفولتها مع أهلها بإحدى مناطق المملكة العربية السعودية..تعلمت وأنهت دراستها هناك.. زياراتها لبلدها كانت أيام كل سنة شأنها شأن الكثيرين ممن يعمل أبواهما بالتدريس فالعطلة تنقضي في زيارات عابرة وبعض من الترفيه المكلف والمحسوب حساباته قبل النزول للعطلة، وكان عليها أن تمتثل لرأي أبويها في الزواج والإقامة معهما بنفس البلد الذي كبرت وتعلمت به وقد كان وتزوجت زواج معارف لرجل يكبرها في السن بنصف عمرها تقريبًا يعمل هناك ومشهود له بالأخلاق والراتب الجيد أيضًا.. إلى حدٍّ كبير تشابهت مفردات حياتنا قبل الارتباط وإلى أن ارتبطنا بأزواجنا فعلًا: الدراسة خارج مصر، عمل الوالد بالتدريس، زواجنا المبكر.

-أنا ماحبتهوش قبل مانتجوز ولا بعد ما اتجوزنا حتى.. ما ادانيش الفرصة احبه.. تعرفوا !! ومع ذلك خلّفت منه اربع عيال.. ماتسألونيش ازاي.. عارفين اللي بيلعبوا عروسة وعريس هههههههه بس اللعبة رخّمت وبقت مملة.. عمره ماحسسني انه بيحبني كنت بحس دايمًا انه بيحب نفسه فيا..

- معلش يا شذا يعني ايه؟

خلفتي منه اربعة وبتقولى عمره ما حسسك انه بيحبك؟ ازاي طيب؟
- ما أنا قلت لكم..

الحياة كانت زي الساقية، زي الدوامة.. اليوم بيبدأ من الفجر.. صحيان وفطار ودوام.. ومدارس وبعدين شغل البيت اللي ما بيخلصش إلا لما يقرب رجوع الكل من بره.. أكل ونوم ومذاكرة ونوم وهلما جرا.. معسكر شغل ونوم وخلفة هههههههه وبس.

- يعني انتو ماكنتوش بتتكلموا في أي حاجة؟ غير الشغل والبيت؟

- لأ ازاي بقى؟ بنتكلم طبعًا.. طابخه لنا إيه ؟حوّشنا إيه؟ وفاضل كام على بُنا البيت؟ والدولار بيعمل كام النهارده ؟ واهي عيييشة يا بنات .

لم تحبه ولم تشعر يومًا بحبه حتى بعد أن أنجبت أربعة أطفال منه.. وحتى عندما توفى والداها وبقيت معه وأولادها بالغربة التي كانت يومًا ما وطنًا.. حيث كان أبويها..

هو لم يبذل أي جهدٍ معها لجعلها تحبه أو حتى تحترمه؛ فقد حكت لنا أنها نالت منه شتى أنواع الإهانات والمعاملة الفظة على حد قولها، وفي كل مرة كانت تغضب عند أهلها وتعود تحت إلحاح منهم وللحفاظ على أبنائها وبيتها.

وبعد أن فارقها أبواها وهما كل أهلها بالغربة، لم يعد من تلجأ إليه بعد الله إلا صفحات النت.. إلى أن ساقتها الظروف في يومٍ ما إلى التواصل مع طبيبٍ نفسي على صفحات أحد المواقع الطبية.. وكان لها الملجأ والملاذ.. فهو في قارة وهى في قارة.. وهذا يعني أنها تستطيع أن تفضفض بما لديها بلا خوف ولا قلق.. فكثيرًا ما نحتاج البوح لأنفسنا في صورة شخص آخر وقد نخشى البوح خشية عدم صون الآخر لتلك الأسرار أو أننا بالفعل قد نخجل من مواجهة أنفسنا بها في صورة شخص آخر.. ولكن فقط لرغبة منها في التخلص من ضغط نفسي وعصبي ألمَّ بها طيلة فترة زواجها.. لجأت إلى الدكتور "أحمد عزالدين " وهو بدوره استمع لها بأمانة الطبيب المعالج وبسرية وصدق واحترام لمهنته عاملها.. ودون أن تدري أو ربما هي وحدها من تدري " أحبته".

لم يكن من السهل على شذا أن تصرح لنا باعترافاتها هذه؛ فأكثر ما يجرح المرأة ربما هي امرأة مثلها.. ولكن الأمر كان مختلفًا معنا في العموم ومع نشوى بشكلٍ خاصٍ؛ فكانت مصدر ثقة لنا جميعًا كما كانت صديقة خاصة لكل منا على حدة.

-" أحمد " كان بالنسبة لي الصدر الحنين.. الأب والأم والصديق.. ماكنتش بخاف منه ولا بداري عليه، بالعكس كنت بحكي له اللي بداريه عن الناس كلها.. كأني بكلم نفسي ولا مرة حسسني إني غلطانة، كان بيسمعني من غير مايقاطعني.. كنت بحس من صدق كلامي معاه انه شايفني مش بس بيسمعني، كنت بشم ريحته من حروفه وهو كمان قالي ده.. إن لكل مرأة عطر بيبان من كلامها، شخصيتها بتنفذ عطرها

ولو من خلال حروف وبس، كنت برتاح أوي في كلامه معايا مش بس كنت بحس إني واحدة ست، لأ كمان كنت بحِس بعقلي وتفكيري وأحلامي معاه مختلفة، ماكنش بيكذبني ولا بيقاطعني لما حتى اتنرفز أو اغضب مع إني أنا اللي بشتكي له، ده كان ساعات بيكتب لي دوا كمان مهدىء عشان أعرف انام وابطل تفكير.

- وما كنتيش بتحسي انك بتخوني جوزك يا شذا ؟

- أخونه؟ ليه؟ وفين الخيانة دي ؟

-نعم !! هو احنا هانتكسف من بعض؟ ولا هانضحك على بعض طالما متداري يبقى مش صح يا حبيبتي.. ازاى بس تبقى علاقة عادية وانتي متجوزة؟

- انتي غريبة أوي يا ندى.. هو انا اعرفه حتى ولا أعرف شكله ولا سمعت صوته حتى؟ خياااانة؟ الكلمة دي كبيرة أوي. أنا كل اللي عملته إني كنت بحكي له واخد رأيه زي ما أنا وانتوا بنتكلم كده.. يعني لو أنا كنت جانبه مش كنت ممكن أكون مريضة في عيادته الخاصة؟ اعتبرت إني فعلًا بزوره في العيادة لما كنت بحتاجه، هو ماكنش بيطلب منِّي حاجة ولا بيحرضني على خيانة مثلا زي ما بتقولي. كان بيسمعني وينصحني وبس.

- طب كملي يا شذا وبعدين انتي لسه بتعرفيه لحد دلوقتي؟

- والله يا أنوش ده اللي هايجنني.. اختفى خالص ومش عارفة راح فين بقاله شهور.. أنا خايفة يكون جرى له حاجة.. عشان كده أن كنت

حاسه بحالة فقد شديدة، محتاجة اللي اتكلم وافضفض معاه زي ما اتعودت على كلامي مع احمد.. حد يخفف عني الوجع اللي أنا فيه ده والهم اللي مابينتهيش ولا حاسس بيا، والحمد لله لاقيتكم اهو.

- يابنتي أومال فين جوزك طيب ؟

- هههههههه جوزي ؟

جوزي مش مهم عنده إنه يهدّ اللي بينا بس المهم انه يشتغل ليل نهار عشان يجيب فلوس يكمل تمن البرج اللي بيبنيه.. أه ربنا يساعده بقى.

من الواضح جدًا أن شذا قد تعلقت بالدكتور أحمد وأحبته دون أن تراه أو يعطيها إيحاء بتقبُّله لحبها – كرجل وامرأة – فقط كان يؤدي دوره كما يؤديه في عمله وعيادته.. أصبح كل حياتها لا تكتم عنه تفصيلة في حياتها، وإن لم تجده كثيرًا ربما كان يتهرب منها، فهو الطبيب المحنك وبالتأكيد مرَّ بنفس الحالات من الحب والإعجاب من مريضاته من قبل.. فبالتأكيد كلهن مريضات بالوحدة يعانين من الإهمال أو الاحتياج.. أحبته وهي تعلم أنه حب بلا أمل.. حب من طرف واحد.. حب –شرعًا- محرَّمٌ.. ولكن ماذا عساها أن تفعل؟ هل يلام ظمآن أن وجد مياهًا وشرب منها.. وإن كانت مالحة وتؤذيه أو ربما سامة وبها نهايته، لم تفكر في نهاية وإن تمنت أن تكون نهاية سعيدة ولو "لها فقط".

*****

(نجوى)

نجوى كانت من أهل الصعيد، هي من كانت أكثرنا جدية وتحفُّظًا في كل شيء.. متزوجة منذ ثماني سنوات بزميلها وقتما كانت طالبة بكلية الأداب ومن أحبت وكادت أن تُقتَل بسببه من أهلها وقتما تقدَّم للزواج منها..

-انتوا عارفين يا بنات "صابر" ده لما كنا زمايل في الكلية كان اكبر مني بسنتين بس، لما كنت في المدينة الجامعية كنت بروح كل شهر بلدنا وساعات كنت بطبق لأكتر من شهر ما اروحش.. كان هو اللي بيقضي لي كل طلباتي في مصر.. كان بيتمنى بس أقوله نفسي في حاجة يعملها على طول ماكنّاش بنكمل اسبوع حضور على بعضه يعني نحضر في الاسبوع يومين بالكتير قولوا تلاتة والباقيين بنبقى سوا... انشالله حتى بنقعد في حوش الكلية المهم اننا ماكناش بنسيب بعض لحظة، ولما اتخرج كنت أنا لسه في سنة تانية واتقدم لابويا.. وعشان هو من اسكندرية واحنا صعايدة، ابويا قلب على الدنيا وكان هايقعدني من الكلية.. كان بيقولي:

" أنا فوّتك تتدلي على مصر عشان تتعلمي ولا عشان تتصرمحي يابت.. ياكشي تكونى فاكره نفسك خلاص مادام بجيتي متعلمة وبتعيشي في المدينة الجامعية لوحدك يبجي إني هاسمح لك تمشي كلامك على !

أقوله يابوي أنا طوعك وعمري ما اخرج عنه.. وصابر ولد ناس ومحترم وجه البيت من بابه أول ما اتخرج اهو.. يقولي: باب إيه وشباك إيه يابت.. من ميتا واحنا بناتنا بتطلع بره العيلة؟ اتجنيتي انتي ولاايه ؟

يووووه قعدنا في حرب سنة كاملة اتحبست في البلد وبقيت اروح الجامعة كل شهر كام يوم بس ووايا عيون تراقبني وقتها كان صابر دخل الجيش ولا كان في بينا تليفونات ولا اتصال إلا بالجوابات اللي كان بيبعتهالي على المدينة بإسم واحدة بنت عشان المشرفة ماتبلغش ابويا واهي الجوابات دي هي اللي كانت بتصبّرني على غيابه وعلى الحصار اللي عمله ابويا الحج عليا بسببه

- يعني يا نجوى زي ما بنشوف في الأفلام كده عن الصعيد؟ كانوا هايتاوكي يا نوجا هههههه !

-بتضحكى يا ماريان.. طب اضحكوا اضحكوا ما هو لو واحدة فيكم كانت جربت الحب زي كده كانت هاتفهم وتحس.. بس هاتحسوا ازاي وانتو كلكم كلاكيع هههههه.. صابر كان مدة تجنيده في الجيش أهون عليه من اللي شافه من ابويا واخواتي.. لما لاقوني برفض كل عريس وهددتهم اولع في نفسي والعار هايلزق فيهم بعد ما اموت أنا لو ما وافقوش على صابر ويتشرطوا عليه زي ما هم عاوزين.. وفعلا بقى يموّت نفسه عشان مايفرقوش بينا لدرجة أن ابويا وافق يقرا معاه فاتحة ومع أهله وما يشوفنيش ولا يجي بلدنا إلا بعد سنة بالكتير ويكون مجهز بيته وفارشه كمان ويروح ابويا يشوفه الأول بنفسه وبعدها يجي يكتب الكتاب واغور معاه " زي ماقال ابويا بالظبط ".. - وانتوا بقى عملتوا اللي قال عليه ابوكي ده؟ قدرتوا يعني؟ ولا هو أساسا قبل كده !!!

- مش بقولك يا شذا.. لو جربتوا الحب كنت عرفتوا الرد.. . ويا ناصحة منك لها أومال أنا عايشه مع مين ومتجوزة مين وبنتكلم أساسا عن مين ؟؟؟ مش هو نفسه ولا انتوا سرحتوا فين ؟؟

كانت نجوى مثالًا حيًا أمامي على التضحية من أجل الحبيب.. هي بطبيعة دراستها ونشأتها كانت ملتزمة دينيًا كملبس وسلوك أيضًا.. وتظهر بوضوح تلك الصفات من خلال حديثها معنا دومًا عن الحرام والحلال والعيب والواجب.. كثيرًا ما كانت شذا تخرج من الشات أثناء تواجدها.. فقد كانا على النقيض من بعضهما، كانت نجوى دائمة انتقاد شذا وماتقوله أو تفعله متعللة بأن المرأة إذا تزوجت عليها أن تتحمل زوجها بكل عيوبه ومساوئه.. فهو قدرها ولا اعتراض على اختيار الله لها.. حتى إن أذاها فعليها أن تصبر وتحتسب عند الله ولا تشكو، عكس شذا التي كانت كثيرة الشكوى ولها من الحجج والأعذار ما تبيح لنفسها أن تقيم علاقة ولو بالكتابة فقط مع أحمد بل وتطلق عليه بكل جرأة -أمامنا فقط - لقب طبيب القلب حبيب القلب.. وهو ما كان سببًا كافيًا لأن تتصارع دائمًا شذا ونجوى، إحداهما تتهم الأخرى بالتسيب والاستهتار والأخرى تتهمها بالتخلف والعقد .

تعجبنا كيف تحيا نجوى بحب مع صابر كل هذه السنوات محرومة من الإنجاب، من نعمة تحلم بها أي أنثى متزوجة مع من أحبت، لكن ما كان بينها وبينه رباطًا أقوى من الأبناء، أقوى من الغريزة التي جُبِلت عليها حواء -الأمومة - وإن كانت بشقائها وحلوها حُلمَ كل أنثى من الصغر إلا أن حبها وعشقها لصابر كان أقوى من كل ذلك، وعزاؤها أن الله لن يهملها فقط هو يمهلها لتختبر صبرها على صابرها.

*****

كان الوقت أسبوعيًا مقسمًا بيننا دون سابق تنظيم.. كل ليلة نجتمع بعد انتهاء اليوم بأعبائه لنا جميعًا وقت الظهر قد يكون وقت الليل لأخرى لفرق التوقيت ولكنه تناسُق بشكل تلقائي وصار موعدًا محددًا لنا.. تبدأ إحدانا بحكايتها فنندمج جميعًا معها بالسمع واقتراح الحلول وربما بالهجوم أيضًا عليها وكثيرًا ما قامت خلافات ومشاكسات بين رأي ورأي معارض فيما نتحاور فيه من أمور عامة وخاصة: فصعب جدًا أن تشترك امرأتان برأي واحدٍ.. ما بالنا ونحن تعدينا الاثنتين والثلاثة والأربعة أيضًا !

فقد كان بيننا من الاختلافات في الديانة والبيئة والثقافات والتعليم ما يوجد الكثير من الاختلافات .. فبيننا المتشددة في إسلامها والمسيحية والمتحررة والمثقفة والحاصلة على درجة علمية وربة البيت التي حصلت على أوليات التعليم فقط.. مزيج تآلف بشكل عجيب وانصهر في بوتقة واحدة كلها صبت في إطار مشترك بينهن " الغربة والوحدة " .

اعتادت المجموعة أن تتسامر كل ليلة ويتداولن بينهن أحوالهن ومشاكلهن ويتنادرن بذكرياتهن وأحلامهن وبعض النكات والهمسات النسائية المرحة والفاضحة أحيانًا أخرى.. أصبحن أسرة واحدة.. وتوزعت الأدوار وتبادلنها بينهن بلا ترتيب مسبق أو اتفاق بينهن.. فكانت منهن من تشعرهن بالأمومة وأخرى بمواقف حادة تتسم بالذكورة والخشونة.. وأخرى بدلالها ونعومتها كطفلتهن المدلَّلة.. تبادلن الأدوار فملأن حياة بعضهن في وقت افتقدن جميعهن العيلة واللمة.

" نـدى "

مرَّ أسبوعان على سفر فريد.. اكتفى فيهما باتصالٍ باردٍ كل يومين فقط لمجرد التواصل والاطمئنان الظاهري على البنات وعليَّ.. ما يخرج من القلب لا مجال له إلا القلب.. فلم أشعر بصدق لهفته واشتياقه أو حتى قلقه علينا في أي كلمة أو إحساس حاول أن يوصله لي.. لعله وجد ما يعوضه عنِّي وعن بناتي..

العجيب أني لم أتفاجأ بموقفه ولم أفزع لتصوراتي التي هُيئت لي فورًا كما لو كنت أتوقعه أو أنتظره.. أو ربما مما سمعته وعرفته من صديقاتي الجُدُد عن تجاربهن الماضية مع أزواجهن وحيلهن الكثيرة عند مدارة علاقة ما بامرأة أخرى أو ما إلى ذلك من نزوات مرت بهم أو لازالت مستمرة.. توقعت الأكثر منه.. الأكثر من سفره أو عدم لهفته علينا كالسابق . بل وشردت بفكري فيما لو حدث بالفعل ماذا سيكون تصرُّفي !

لن أنكر أن الشك قد بدأ يتمكن مني.. فلم يكن فريد من النوع الذي يقضي أيامًا بعيدًا عن البيت ويكون رد فعله وغيابه بهذا البرود المتناهي وعدم السؤال عنا بشكلٍ دائم كما تعودت خلال سنوات زواجنا أو سفره والذي كان لا يمتد لأكثر من أيام مهما كانت أهميته.. هذه المرة الوضع مختلف.. وإحساسي أيضًا مختلف .

حان وقت البوح..

وجاء دوري في أن أقص ما عندي ولكني لم أستشعر أني أريد أن أطلع الجميع على ما أردت البوح به.. فقط كنت أحكي لهن القليل والساذج من حياتي حتى بدوت لهن بلا مشاكل مرفهة ملولة من كل شيء وكأني أقضي معهن وقتًا للسمر فقط وليس للقضاء على ما أعانيه من ضغوط نفسية وملل وفراغ نفسي الذين لم أكن أعرف كيف المناص منهم ولا أدري لما اختصيت بالكلام على انفراد " نشوى" فقط.. ثمَ شيء خفي كان يشدني إليها.. كنت معجبة جدًا بتفكيرها الوسطي المعتدل دائمًا تجاه كل ما يحكى لها ولنا.. وفي نفس الوقت كنت أشعر أنها محور اهتمامنا جميعًا وأن رأيها هو ما يهمنا جميعًا برغم أن الحكايا كانت بيننا جميعًا وحوارنا مفتوحًا لنا جميعًا كنا كشخصٍ واحدٍ يحكي وشخص واحد يستمع.. ولكن بشكل خاص رسمت لنشوى صورة وهيئة رائعة قمة النضج وقمة العقل والرومانسية معًا.. استشعرتها قوية بنعومة كانت كُفئًا لأن تمتص غضب أيٍ منا بسهولة بل وإقناعها بتعديل مسارها إن رأت هي ذلك أصح لها في ذاك التوقيت.. نشوى كانت مثلًا أعلى لي.. كم تمنيت لو أني ألقاها بالحقيقة وأرتمي بين ذراعيها باكية.. أفصح لها عن كل ما بي من يوم أبصرت الدنيا بالعباسية وحتى لحظة لقياها.. ربما كان هذا الإحساس وليد فقداني ضمة الأم والأخت في الواقع..

أرسلت لها طالبة رقم هاتفها حتى أتواصل معها بشكلٍ خاص وخاص جدًا لاحتياجي الشديد لها . فقد كنت أعلم أن ما أردت أن أحادثها به قد يكون مسار سخرية أو انتقاد من صديقات الجروب.. فأنا الوحيدة

بينهن من أمتلك كل شيء يوفر الراحة والسعادة لأي امرأة أو زوجة تحديدًا: المال والأبناء والزوج المحب الغيور بل وأيضًا الرومانسية المفرطة التي لازلت أحملها بين جنبات آلامي الخفية والتي لا تظهر إلا لمن اقترب من كيان ندى وليس من عرف ندى الزوجة والأم.

كان رد نشوى غريبًا ومفاجئًا بالنسبة لي: فقد رفضت بشكل ما أن نتواصل عبر الاتصال الهاتفي أو حتى الماسنجر قالت بالحرف :

"يا ندى لو كنت اقدر ادي رقمي لحد كنتي انتي أول حد اديهولها.. بس ما تنسيش يا حبيبتي ان كلنا مهما حكينا تفضل عندنا أسرار ما ينفعش نقولها لحد – صح ولا أنا غلطانة ؟

- الحقيقة مش عارفة اقولك إيه يانشوى.. انتي فاجئتيني بصراحة بردك ده.. لكن على راحتك يرجع لك القرار.. وعمومًا أنا أسفة لو تعديت حدودي.

- لأ يا ندى ماتقوليش كده، واللهِ هزعل بجد.

كل ما في الأمر إني فعلًا افضل أننا نتلاقى هنا.. عالكيبورد عارفه ليه؟

- لأ مش عارفة، ليه ؟

- ببساطة الكتابة بتخليكي تحكي من غير مقاطعة مني أو من غيري.. الكتابه تخليكي تعيشى اللي عاوزة تحكيه أصدق من الكلام.. مساحة البوح عندك بتزيد كأنك بتحكي عن غيرك مش عن نفسك بترفع الحرج

عنك وعن نبرات صوتك.. كمان أنا لما اديلك رد هايكون محسوب أوي.. وانتي وغيرك وانا محتاجين رأى العقل في وقت احنا عقلنا بيكون مش معانا بنكون تفكيرنا طالع من حواسنا من قلبنا مش من عقلنا – فهمتيني يا حبيبتي؟

" الحقيقة لم أقتنع بكلامها، ولكن لمكانتها عندي كنت لا أشك في أي كلمة تنطق بها ولا بأي رد فعل منها تجاهنا وتجاهي أنا بالذات "

أذكر في مرة قالت لي :

- انتى يا ندى ماتعرفيش مكانتك عندي.. تصدق إني بقيت أفكر فيكي ليل نهار.. زي ماتكوني عملتي لي عمل يابنت انتي.. انتي إيه حكايتك؟ أنا عذرت جوزك له حق يغير عليكي .

كان كلامها لي يسعدني، شعرت منه بقرب المسافة بينا ولذلك لم أتردد لحظة في ذِكر تفاصيل تفاصيل حياتي لها.. ارتباطي بالمجموعة كان في جانب وبها هي جانب آخر لا يقاسمها فيه أحد.. أخذت مكانة أمي وصديقتي بل وحبيبتي التي أثق بها جدًا .

اتفقت مع نشوى على موعد التقينا فيه عبر "النت" دون المجموعة.. وحكيت لها كل ظروف زواجي الأول وما سبَّبه لي من جرح في أنوثتى وكرهي للعلاقة الحميمة فيما بعد مع فريد؛ فكان هاجس مرعب أن ألتقي في الفراش معه وأعيد نفس التجربة الفاشلة من جديد ومع إني لا يد لي ولا حيلة فيها.. كل ما كان أني تمَّ زفافي على رجلٍ وفشلَ في أن

يكون أبًا من أول عام لزواجنا فرماني بالسباب وبتهمة كادت تلتصق بي العمر كله لولا إرادة الله أن أتزوج فريد ويرزقني بمن أعادت لي ثقتي المهزوزة أمام الناس. ولكنها لم تشبع رغبتي كأنثى أو امرأة.. لم أشعر يومًا بالمتعة التي أسمع وأقرأ عنها.. فقط كل ما في الأمر كانت استمرارية للحياة.. وتعمقت معها في ذِكر كل مشاعري تجاه فريد وإحساس الحب الذي أفتقده معه برغم كل ما يبذله وأبذله بالمعية أنا الأخرى لنتقارب فكريًا وروحيًا وجسديًا.. لم أخفِ عنها شيئًا.. حتى فاجأتني بسؤالها :

- انتي في حد في حياتك غير جوزك يا ندى؟

- لأ طبعًا.. ليه بتقولي كده؟

- قولي لي ما تخافيش – صارحيني – ماهو اللي بتقوليه ده لازم يخليني أفكر في ده.

- صدقيني لأ مافيش .

- عاوزة تقولي لي إن الرومانسية اللي حسيناها كلنا فيكي دي والحب اللي بتكلميني عنه ده مش لحد؟ طالما انه مش لجوزك غصب عنك وان عيشتك معاه بما يرضي الله في بيتك وبناتك ونفسك لكن قلبك مش معاه.. طيب مع مين؟

- مش مع حد.. لوحده !

أكيد في حاجة أكبر من إني اسيب قلبي لغيرها.. أنا نفسي مش عارفاها إيه.. كتير بحلم أحلام وانا صاحية بتاخدني لعالم زي ما أكون أنا فعلًا عايشة فيه.. الدنيا دي يا نشوى مش بتاعتي مش لاقية نفسي فيها مش بتاعتي أنا متاكدة من كده..

انتي عارفة أنا بشوف في المنام أماكن عمري ما شُفتها في الحقيقة وبعدين أفاجأ بها في فيلم أو في حد بيحكي عنها شافها في بلدعمري مارُحته.

- لأ وضّحي أكتر يا ندى.. مش فاهمة!

- يعني مثلا أنا حلمت بجلال الدين الرومي .. أه واللهَ.

عمرك سمعتي عن حد حلم به.. أو حد عمل دوره في فيلم مثلا فعرفنا شكله بالتقريب؟

ملامحه.. صوته.. طوله.. عرضه !

يا نشوى أنا بتكلم مع الناس دي وبروح معاهم في عالمهم.. في زمنهم بشوف نفسي بشكل مختلف بكون لابسة لبس غريب واسع وابيض وبدور بيه مع اناشيد ومزيكا أنا مش مفسراها ولا أعرف بأي لَكنة ولا لغة بغنيها بس بكون سعيدة وخفيفة وطايرة وانا رجلي على الأرض..الأحلام دي مش بس وانا نايمة أنا بقيت كتير بسرح فيها كمان.. أنا ساعات بحس إني فقدت عقلى من كتر ما بحلم وانا صاحية .

ـ صمت ـ

ما بترديش عليّا ليه يا نشوى؟ صدقتيني ولا هتقولي عليًا مجنونة؟

- لأ يا حبيبتي بالعكس أنا مركّزة معاكي أوي.. بس الحقيقة مستغربة حبتين.

إنتي قادرة تعيشي بالشخصيتين دول ازاي؟ اللي بتوصفيه ده حاجة مش في حياتنا دلوقتي.. ولو اتوجدت فهي محدودة وقليلة جدًا مش متعارف عليها بينا يعني لعامة الناس قليل منهم بس اللي يعرف ده مش اكتر.. يعني انتي ما عيشتهوش قبل كده في الواقع.. ولا يمكن قرايتك عنه ولا المزيكا اللي بتسمعيها دي هي اللي خليتك تحلمي أحلام اليقظة دي ؟

-لأ.. مش يقظة، أنا بحلم وانا نايمة فعلًا باللي حكتهولك.. شُفتي بقى أديكي مش مصدقاني عشان كده قلت هاحكي لك انتي لوحدك.. دليني اعمل ايه؟

أعيش كده ازاي؟ أسيب الدنيا دي خالص واعيش لخيال أنا حبيته.. ولّا اتخلص من الخيال ده ازاي واعيش الواقع وان كنت رفضاه ومش لاقية نفسي إلا في الخيال ده ؟

- طيب اهدي كده ونكمل كلامنا بكره.. أنا غصب عني مضطرة اقفل معاكي عشان ورايا موعد طبيب ضروري اروح له.. ووعد لنا كلام تاني ومش هاسيبك إلا لما ترتاحي خالص – وعد.

كنت على يقين أن لا أحد سيعاونني أو يصدقني فيما أقول.. ولهذا كنت أكتفي بسماعهن فقط.. وأحيانًا كنت أشاركهن بالرأى أو بالدعابة أو بالحديث عن طريقة لعمل أكله معينة أو نوع من أنواع الحلوى المنزلية.. أو عرض صور لهن عن أحدث قصَّات الشعر والتي كنت أجيد التعامل معها فقد كانت بناتي حقل تجاربي في قصات وتسريحات الشعر.. كُنَّ يسعدن ويثقن في ذوقى في اختيار ألوان وموديلات ملابسهن أو ألوان الستائر الخاصة بمنازلهن وديكورات غرف النوم والسفرة والاستقبال أيضًا.. فأنا أتذوق كل ما يمت بصِلة للألوان والموسيقى وأجيد التصميم والتخيُّل لديكورات أو تنسيق الغرف والأثاث بالإضافة لما تعرفت عليه من أنواع ومجالات وأذواق جديدة وراقية من خلال مواقع الإنترنت المهتمة بذلك .

أيقنت أن عليَّ أن ألجأ لنفسي فقط.. أن أصاحب نفسي التي انقسمت بداخلي إلى ندى الظاهرة للكل.. وندى الخاصة جدًا بداخلي، ندى التي لا تجد نفسها إلا مع نفسها.. فما نفسي هذه التي لا تهنأ إلا بخلوتي مع روحي !

نفسي!

روحى !

لِمَ تُشقيني نفسي بالتفكير في منغصات من حولي.. ولِمَ روحي دائمًا تهيم في عالم الأحلام والخيال؟ لِمَ أخشى منها وأنا أعلم أنه مهما كان بداخل النفس من ظلام قد يسود لبعض الوقت إلا أن هناك دائمًا بصيصًا

من الأمل يترقب منفذًا ليعم كامل الروح.. فقط وحده.. صاحب الروح هو من يتيح لها ذلك المنفذ.. فقط هو من له الأمر والنهي.. الضوء ينبثق من داخلنا رُبَّ كفيف ولكنه مُبصر.. والكثيرون مبصرون ولكن لا يرون النور.. النور بداخلنا لا يحتاج لعيون.. فقط يحتاج لبصيرة .

أجمعت كل ما لدي من قوة داخلية وخارجية.. استجمعت كل قوتي وما أستطيع من قوة روحية ونفسية ومادية عزمت على أن أفتح طاقة جديدة للحياة :فليس كل العالم " فريد" وليس كل العالم امرأة تنحصر وظيفتها في كونها أُمًا؛ فهي لم تبتكر جديدًا.. كل أنثى تتزوج تصبح أُمًا.. ناموس الكون لم أصنع جديدًا.. فإن لم أستطع أن أتحكم بالعالم.. فأستطيع أن أتحكم بنفسي على الأقل.. العالم المتمثل بفريد.. لن أتحكم به..

فقط سأتحكم بعالمي.. بندى .

" فريـــد "

باتت لقاؤتنا أنا ليلى تحدث بشكل مستمر ويومي.. وما بين اللقاء واللقاء عشرات المكالمات الهاتفية التي قد تقتصر أحيانًا على كلمة واحدة بلا مبرر. فقط لمجرد أن نكون على اتصال وتواصل معًا طيلة اليوم.. كنت أراها في كل لحظة و ما إن أنهي أعمالي وجولاتي مع وفد المصنع وتفحُّصنا وتعاقداتنا على شراء الآلات التي بصددها جئنا إلى هنا.. إلا وأجد نفسي رهن إشارتها. كنت أتسابق مع الوقت حتى أنهي جميع التعاقدات والاتفاقات المالية المكلف بها وإتمامها وإرسال الإيميلات الخاصة بها أول بأول للشركة.. على أن أصبح مع أول الليل غير مرتبط بأي مواعيد.. في حين كان زملائي يذهبون للتسوق أو التنزهة. كان همي واهتمامي الأول هو أن ألزم بهو الفندق في انتظار أن تنهي ليلى ساعات عملها التي كادت تقتلني الدقائق بل والثواني أيضًا في الانتظار شوقًا ولهفة للقاها بحجة تناول طعام العشاء سويًا.. وما كنت أنتظر سوى ما يشبع لهفتي وحبي القديم الذي قُدِّر له أن يتجدد في وقت لم أحسبه ولم أتوقعه بَعد.. اليوم صرت أستطيع أن أتقابل معها أنا وهي فقط دون مانع أو عائق.. فهي تعيش بالنمسا بمفردها بعد رحيل زوجها الذي لم تنجب منه أطفالًا بعد زواج استمر سنوات عشر ولم أشأ أن أسألها عن السبب.. يكفيني ما عرفته منها في لقاءتنا اكتفيت بأن أعرف أنها أصبحت أرملة وليس لديها أبناء في تلك البلد التي تغربت فيها بعد أن تزوجت عقب وفاة أبيها بعامين.. فقد كان

تربية فتاة وحيدة أمها –جميلة – مرغوبة – ولها من الإرث ما يجعلها مطمعًا من الغير، عبء ومسئولية على كاهل أمها وأعمامها.. فزوَّجها عمها بابنه فور انتهاء اختبارات آخر عامٍ لها بالجامعة حفاظًا عليها كابنة أخيه وتعد في منزلة ابنته من اتجاه ومن اتجاهٍ آخر للحفاظ على ميراثها من أبيها وأخوه خشية أن يلتهمه آخر ليس من دمهم طمعًا في الإرث المالي الذي عاش عم مرزوق يقطر على نفسه وعليهم في حياته ليرثوه بعد مماته وإن كنت أرى أنا أن ميراث أبيها كان " هي" فقط.. فأجمل ما صنعه أبوها وأمها بالنسبة لي هو وجود "ليلي " في الكون وحسب .

سافرت ليلي وابن عمها " من صار زوجها " سويًا لعمله بأحد الأوتيلات الشهيرة بالنمسا.. دام زواجها سنوات وسنوات أملًا في إنجاب طفل أو طفلة تشعر معه بما افتقدته هي في بيت أبويها.. أو بالتحديد ما شعرت بأن أمها افتقدته وهي جنت ثمرته فيما لا حول ولا قوة لها ولا لأمها فيه.. لم تعرف طعم أن يكون لها أخ أو أخت يتقاسما ألعابهما أو مأكلهما أو فراش نومهما.. تمنت وسعَت وعانت من عدم إمكانها هي وزوجها من الإنجاب.. فقد تربَّت وحيدة بين أبويها وكُتِبَ عليها أن تعيش وحيدة أيضًا مع زوجها .

ويشاء القدر ورب العالمين أن يصاب زوجها في حادث سير وتنجو هي برضوض بسيطة نتيجة السرعة في القيادة أثناء قضائهم عطلة نهاية الأسبوع هناك ويظل رهن العمليات الجراحية لمدة عام فارق بعده الحياة.. وكان على ليلى أن تقرر أن تعود إلى مصر في كنف أعمامها بعد

وفاة أمها من سنوات قريبة وتحكمهم بالطبع في أرملة ابنهم ليس بحسب ولكن لأنها أيضًا ابنة أخيهم.. ولذا كان عليها اتخاذ قرار حاسم وتتحمل تبعيته هي؛ فقد قررت أن تستمر بالنمسا بعد أن التحقت بالعمل في الفندق بواسطة زملاء ومديري زوجها الراحل واكتفت بأن تعتمد على نفسها في حياتها من دون الغير.. فما بعد الأب والأم والزوج.. من يُعيل؟ حكت لي ليلى ما سبق من حياتها منذ أن تركنا أسوان من سنوات بعيدة وحتى وجدتها الآن.. كانت تحكي لي كمن تستعيد ذكريات تحن هي إلى سردها فقط كماضٍ، ولكن لم أستشعر منها فقدَها لهذه المرحلة.. فقد كانت ليلى غير ما كانت شكلًا وموضوعًا.. رأيتها امرأة ذات ثقة وقوة في كل تفاصيلها وملامحها.. لم يزل وجهها محاطًا بعرين شعرها الأسود الغجري.. تركته ينسدل على كتفيها بغوغائية وفوضى مثيرة لأن يقتحم هذا العرين أي مخاطر لينال لذة المغامرة لخوضه ونشوة الانتصار بالفوز بصاحبته، خطواتها قوية بنعومة قد تغري الناظر إليها ولكنها تكبِّله.. رأيت فيها الشيء والنقيض.. ضعف الأنثى القوية حينما تستكين لرجلها فيستلهم من قوتها ضعفًا ومن ضعفها قوة في نفس الوقت.. حركت في داخلي كل ما كنت أجاهد لأخفيه حتى عن نفسي منذ زواجي بـ ندى.. وما تاقت إليه نفسي من حب المغامرة وخوض التجارب .

*****

قارب الشهر الذي كان مقررًا لنا في هذه المأمورية على الانتهاء.. وقد أنهيت ما أتيت لأجله إلى النمسا من أعمال كانت قد رُتِّبَ لها مسبقًا

بنجاح وعلى أكمل وجه أيضًا.. ولكن ما فاجأتني به النمسا ولم يكن مُرتَّبًا له كان هو أكبر وأهم حدث بالنسبة لي. ليس في تلك الرحلة فقط بل خلال الأعوام الأخيرة من عمري.. فهل ياتُرى سأنهي الموقف عند هذا الحد مكتفيًا بالمزيد من اجترار الذكريات مرة أخرى وأغادر عائدًا إلى ما كنت عليه قبل المجيء إلى هنا؟

إلى وعملي وبيتي وحياتي وروتينها المعتاد ؟

وندى وصمتها الذي لا ينفك إلا عند طلبها بما لا أود فعله؟ هل سأترك ليلى ينبوع الأنوثة المتفجر والحب القديم بعد أن عثرت عليها؟ هل سأتنازل عن حُلم المراهقة والصبا والانتعاشة التي أحتاجها الآن لإضافة البهجة والحيوية على حياتي الروتينية، أأتركها الآن بعد أن باتت قريبة منّي من جديد؟

لا... لن أتركها ولن أترك البلد قبل أن أقترن بها.. نعم وما الذي يحول بيني وبين زواجي منها؟ ما كان بالأمس تبدل الآن.. لم أعد المراهق المُحِب قليل الحيلة.. ولم تعد الفتاة القاصر المسئولة من والدها.. ولم يعد فارق السن وما جعلني أبتر أحلامي صغيرًا عائقًا أمامي الآن.. بل لم يعد لها أحد مُطلقًا بهذه الدنيا يحبها ويخاف عليها غير طامعٍ فيما تملك مثلي الآن.. لن يمنعني زواجي أو بناتي من الزواج مرة أخرى.. فكيف يمنعوني ويحرمون ما حلل الله؟ أليست ندى زوجتي بسنة الله ورسوله؟ ستكون ليلى أيضًا زوجتي بسنة الله ورسوله؟ فمن سيمنعني؟ إلا.. هي .

عقدت العزم على أن أرجئ عودتي إلى مصر لأيام أُخَر لا أعلم عددها إلى أن أصل إلى ماتمنيت وحلمت.. سأتصل بندى وأبلغها بذلك وليكن ما يكون..

- ألو.. أيوة يا حبيبتي ازيك وازي البنات؟ عاملين ايه؟

- البنات بخير يا فريد انت وحشتهم أوي، مستنينك خلاص بعد يومين إن شاء الله.

- آآآآ.. لا يا ندى.. ماهو أصل..

- إيه يافريد؟ مالك؟ في حاجة حصلت؟ خير!

- الحقيقة إني مضطر أأجل عودتي كام يوم كمان.. أصل الشغل لسه ماخلصش ومش هينفع اجي من غير ما اخلص اللي جيت عشانه.. معلش يا حبيبتي كلها كام يوم وارجع إن شاء الله ادعيلي انتي بس يا أرق ندى وأطيب قلب.

....

شعورغريب تملكني؛ ما بين التوتر والمتعة في وقت واحد وأنا أحدِّث ندى،إحساس مررت به من زمن وكان بسبب ليلى أيضًا.. أذكره جيدًا وتجلى أمامي أثناء اتصالي بندى واختلاق الأعذار والمبررات لتأجيل حضوري إلى مصر.. كانت أمي منذ سنوات هي من أختلق لها الأعذار حال تأخُّرى في العودة من الدرس الخصوصي مساءً.. فقد كنت أنهي

الدرس وأقفز مسرعًا ألتهم الطريق عَدوًا لألحق بعم "مرزوق " والد ليلى قبل أن يغلق الدكان.. فقد كانت ليلى تأتي آخر الليل لتساعده في تجميع الأغراض من أمام الدكان من كراتين الحلوى التي كان يصُفها في شكل يُغري به الصغار لتصبح في متناول أيديهم وأعينهم فتثير شهيتهم ولعابهم وتستقطب أموالهم من جيوب آبائهم للشراء برضاهم أو غصبًا عنهم..

- عنك انت ياعم مرزوق أنا ها ساعد ليلي على ما انت تعدّ الفلوس وتقفل الدرج..

طبعًا ما هي إلا حجج ما أردت منها إلا أن أقترب من ليلى وأكلمها بل وربما أستطيع أن ألمس يدها في غفلة منها لأتباهى صباحًا أمام أصدقائي بالمدرسة بأني نلت منها ما لم يحلُم به غيري من أقراني الصغار.

- انت يا ابني إيه اللي منزلك الشارع دلوقتي؟ طب انا بنزل اساعد بابا.. انت إيه اللي جابك هنا؟ هو كل كام يوم تنط لنا كده ؟ قالتها بابتسامة تبدو أنها سخرية أكثر منها استفسار

- الحق عليًا يعني إني عاوز اساعدكم؟ ماشى يا لولا.. شكرًا أوي.

- هههههه.. لأ الحق مش عليك.. حقك عليًا ماتزعلش يا زغنن ماتعيطش يا نونو.

شطت غضبًا وقتها وأردت أن أظهر أمامها بمظهر الشباب بل مظهر الرجولة أيضًا.. فكشرت عن أنيابي وجززت على أسناني حتى كاد فكي أن ينفجر من وجنتي من شدة ما قبضته.. وبكل ما امتلكت من قوة أمسكت معصمها قائلًا بصوت مبحوح يشبه الهمس:

- ما تقوليش صغنن دي تاني.. أنا راجل عارفة يعني إيه راجل؟ وبكرة تشوفي وتعرفي ان الرجولة مش بالسن يا ست الحسن والجمال .

وحملت كل ما بوسعي حمله من كراتين بما يثقل على ذراعي ولكني أحببت أن أظهر بمظهر بطوليّ وعنفوان يدهشها لتتراجع عن كلمتها الساخرة من صغر سني وأدخلته داخل الدكان وألقيت السلام على عم مرزوق.. وتركتها تنظر لي في دهشة ممسكة بمعصمها تتحسس موضع قبضة يدي عليه ذهابًا وإيابًا مما يوضح أنه يؤلمها .

وما أشبه اليوم بالبارحة.. اليوم شعرت بنفس إحساس الكذب الممتع الذي كنت أمارسه على أمي حتى أرى ليلى.. تبدلت الأدوار وصارت ندى مكان أمي ولم يتبدل دوري ولا دور من أكذب بسببها.. محبوبة الطفولة والمراهقة " لولا ".

انتظرتها بهو الفندق حتى أنهت موعد عملها.. كانت تعلم بقدومي.. فرحَّبت بي وتوجهنا إلى المطعم لتناول العشاء سويًا كما اتفقنا مسبقًا.

- ها توحشني يا فريد.. اتعودت على وجودك الأيام اللي فاتت دي كلها.. مَليت على وقت كتير كنت نسيت فيه حتى الكلام العربي .

- بس انتي مش ها توحشيني يا لولا..

قلتها مبتسمًا.

- مش ها وحشك ؟! ده رد !! طيب شكرًا يا سيدي.

قالت وقد بدا على وجهها الانقباض " فسارعتها بالرد:

- هاتوحشيني ازاي وانا مش ممكن هاخليكي تغيبي عن عيني لحظة من دلوقتي؟ معقول بعد ما الاقيكي هاسيبك ؟؟

- مش فاهمة، تقصد إيه يا فريد ؟

- هانتجوز يا ليلى .

...

صمتت وشردت بعيدًا كما لو أنني صفعتها على غفلة.. ثم قالت :

- مين يتجوز مين ؟؟

- هههه هو مين غيرنا بيتكلم دلوقتي؟ أنا وانتي هانتجوز يا ليلى.. ده لو وافقتي طبعًا..

مددت يدي وتناولت كفيها اللتين بدتا كالمخدرتين بين راحة يديْ ورفعتهما برفق إلى شفاهي وقبَّلتهما برقة ونعومة قد تكون مبالغ فيها لكني لم أشعر إلا وأنا مغمض العين وأقبِّل كل جزء في كفيها كمن يرسم بريشة مبللة بألوان شفافة تكاد لاتُرى فيتحسس موضع ضربات

فرشاته قبل النزول إليها وأثناء الرسم.. كانت شفتاي ترسم أول طريق الحب الفعلي بيني وبينها، طريق كنت ظننت أني افتقدت أثره من زمن.. ولكني أفقت عليها تسحب يديها بقوة من قبضة شفاهي المتسلسلة إليها..

- إيه ده يا فريد !!

ازاي تعمل كده؟ وإيه اللي بتقوله ده؟ إنت فاهم انت بتقول إيه ؟

- أكيد فاهم كل اللي بقوله واللي بعمله واللي هاعمله كمان يا ليلى.
- مستحيل ده يحصل..

- ليه مستحيل؟

-أسباب كتير مش سبب واحد بس.

أولهم انك متجوز وعندك بيت وزوجة وأولاد . وثانيهم إني اكبر منك بكتير انت فاهم أكبر منك بسبع سنين يافريد.. مش سنة وَلا اتنين، ثالثًا بقى إني مش مستعدة افقد حريتي وارتبط براجل وانا اتعودت أكون حرة .

لم أتمالك نفسي من الضحك.. ضحكت هستيريًا حتى أدمعت عيناي..

قاطعتني بتحفز وعصبية..

- بتضحك على إيه دلوقتي ؟؟ انت مجنون ؟

- أيوة أنا مجنون.. مجنون بحبك من زماااان.. واللي منعنى زمان خلاص.. بخ.. راح.. انتهى.. انتي قُلتي أهو.. انتي كبيرة وانا مابقتش الصغنن اللي سخرتي منه زمان.. أنا وانتي مش صغيرين وأمرنا بإيدينا وما تنكريش انك محتاجة راجل معاكي يسندك ويحبك وتحبيه.. يا ليلى انتي أنوثتك وشبابك وجمالك مستحيل يكونوا إلا لبنت في العشرينات.. ماتحاوليش تنكري انك محتاجة الحب دلوقتي أكتر من الأول، وبعدين مين قالك إني هاكون ضد حريتك؟ مين قال إني عاوز أغيَّر أهم حاجة بتشدنى ليكِ؟ مين اللي قالك أن جوازنا مش هايكون أهم سماته هي الحرية؟

- حقيقي مش فاهماك يافريد؟ يعني انت عاوز تتجوزني ومش هاتأثر على حريتي؟

حتى لو اللي بتقوله صح.. طيب وولادك ومراتك ؟

-مالهم بس؟ هو في اللي يمنعني من إني اتجوز وافتح بيت تاني؟

- ذنبها إيه مراتك تتجوز عليها؟ وانا اتحمل ذنب بيت بيتخرب؟

- ومين قال لك انه هايتخرب؟ ولا إنه كان عمران أساسًا؟

لعلمك ندى مش هايفرق معاها.. يمكن تتأثر شويتين في الأول.. لكن مش هاتفرق معاها كتير.. هي أساسًا عايشة معايا وقلبها مش معايا.

- ايه؟ بتقول ايه؟ مراتك بتحب حد غيرك ؟؟ وانت عارف !!

- لأ مش بالظبط

شوفي يا ليلي.. الحياة بينا من بعد جوازنا بسنتين تقريبًا بقت فاترة جداااا روتينية لأبعد الحدود.. زي ما الست بتحس بجوزها وان كان فيه في حياته واحدة تانية ولا لأ.. الراجل كمان يقدر يحس كويس أوي مراته بتحبه هو.. بتحبه كحبيب و رجل يكفيها عن العالم ولا بس حبها له شكل اجتماعي وكيان وتعوُّد على وجوده بس لاكتمال شكل البيت والأسرة والست اللي ماعنّستش ولا بارت واتجوزت وعايشة ملكة في بيت له راجل بيصرف وبيأمّن الحياة لها ولولادها كمان.. البرود اللي بينا كزوجين.. متعة الجواز نفسه اللي أنا و أي راجل زيي محتاجها يمكن أكتر من الست فإن كانت الست بيحوشها الحياء والتقاليد عن إنها تفسر ده أو تبوح به.. الراجل لأ.. أنا بقولك اهو.. ندى مش سعيدة معايا وهي مش بتشبع رجولتي معاها.. أنا سعادتي معاكي انتي .. أنا محتاج واحدة زيك انتي.. لها شخصيتها وكيانها.. واحدة بتشد كل حتة فيا ناحيتها، كلامك سكوتك تفكيرك ملامحك جسمك.. كلك يا ليلي كلك .

يبدو أنني انفعلت أثناء كلامي، وتدرج صوتي في العلو حتى إن آخر كلماتي كانت كصياحٍ.. جعل همهمات من حولي ونظراتهم وقيام ليلى المفاجيء من على طاولة الطعام بشكلٍ ملحوظ. يشعرني بقوة كأن ارتطم رأسي بحافة الطاولة – انتبهت وتناولت علبة سجائري والولاعة وسلسلة المفاتيح بحركة سريعة وركضت وراءها إلى باب الخروج .

غياب فريد المفاجىء والمطول أربكني كثيرًا.. شردت فيما وراء عذره الكاذب.. فأنا أعرفه جيدًا.. متى يتلعثم ويبتلع كذبه عندما يحاكيني في أمرٍ ما يود فرضه على إقناعي به.. فريد يخفي شيئًا أكبر من تأجيل سفره لإنهاء عمله هناك.

مرت أيام وتابعتها رفيقاتها من الروتين اليومي.. مع البنات والبيت وليلًا أقضيه حتى الصباح في حوارٍ على النت مع رفيقات الوحدة ونشوتي الغالية "نوشا " التي كدت لا أحتسب يومًا من عمري يمر دون أن أطمئن عليها وأطمئنها عليَّ.. سواء على النت أو الرسائل بيننا وقد احترمت جدًا عدم رغبتها في اتصالات صوتية بيننا لأمور خاصة بها وحدها كما لَمَحَتْ سابقًا وصرحت بالفعل بها للجميع.. فلم يكن يعنيني إلا أن أجدها وقتما احتجتها.. أصبحت لي الأم والصديق.. نعم الصديق وليست الصديقة الصديق الذي قد أحتاج لمشورته يومًا كرجل لا كامرأة وهناك فرق بين الاثنين لا يدركه سواي.. أعادت إليَّ مرة أخرى ذكريات " عهد " وهماستنا التي كانت ترضيني وتعوضني عن ما افتقدته في حياتي وصباي مع والديَّ بالخليج من التعارف أو الزمالة أو حتى القرابة لذكور، استمر معي وبشدة أكبر بعد زواجي.. حتى إني تخيلت لو أنني اضطررت للتعامل بالدراسة أو العمل يوم ما - " كحلم أوشك أن يصبح سرابًا لي " - مع رجال.. فسيكون الوضع لا يختلف كثيرًا عن طائر صغير اقتطع من حضن أمه و ألقى ببحيرة عميقة يقاوم

المياه فقط ليسبح.. فينظر الكل له إما ضاحكًا ساخرًا لضآلته وسط البحيرة أو متعاطفًا لسذاجته وقلة خبرته بالسباحة في بحيرة فما بالك لو أُلقيَ بالبحر !!

مع نوشا نتصارح بكل شيء حتى إنها أرسلت لي يومًا كتابات شعرية لها بشكل خواطر منظومة راقتني جدًا، ليست لروعتها ولكن ربما لأنها أصاغت لي ما يجعلها بجواري في فترة ما بعد أن تتركني هي خلف أبواب الشاشة الجهنمية التي جمعتنا عبر قارات لنكن على قلبٍ واحدٍ.. وطلبت منِّي أن أكتب لها.. لنفسي ولا أخشى أحدًا؛ فلن يقرأ ما بيننا ثالثٌ .

تشجعت جدًا وبدا لي الأمر متنفسًا خفيًا بعيدًا عن أعين رفيقات الجروب وفريد وبناتي بل أحيانا كنت أتقلص من نفسي ذاتها وأكتب لنفسى التي أتوق إليها في عالمها المجهول.. أشرد معها وأعود بين السطور لأجدني قابعة قليلة الحيلة إلا من الإنصات لها "ما بين نفسي ونفسي كدت أن أجن " لولا وجود نشوى وتبادلنا الخواطر بشكل شِبه يومي.. في حيرتي بين اضطراري لاستمرار حياتي مع من بدأت أتأكد من أنه هو أيضًا مضطر للحياة معي .

- وأنتي يا ندى هاتسيبيه كده يعمل اللي عاوزه وتقولي قلبي مش متطمن؟

-وايه اللي بإيدى اعمله طيب؟ أي واحدة مكاني مش هايكون لها حجة تقنع الناس ولا تقنع جوزها نفسه باللي بفكر فيه.. دليني انتي!

- بإيدك يابنتي كل حاجة.. اتحرري من نفسك اللي قهرتك دي.. اتحرري منه هو كمان.. اخرجي بره قوقعتك دي.. شوفي حياتك وكملي دراستك وانسي الناس وكلام الناس اللي هايموّتك من التفكير ده.. بتقولي أي حد مكانك.. أي حد يا ندى مش اني.

- أتطلق يعني؟ تاني يا نوشا ؟

- لأ. خليكي كده جارية عنده يروح ويجي يرمي لك شوية فلوس وهدايا يضحك بيهم عليك . واقعدي اخدميه هو بناته وانسي نفسك بقى.. لحد ماتموتي من التفكير والقهر ولا حد هاينفعك.

-بناته إيه بس؟ بناتي أنا.. دول أهم حاجة في الدنيا عندي ومش ممكن هاسيبهم له أبدًا.. ده هما اللي معيشنّي أصلًا.. وبعدين معنديش أسباب واضحة ولا حتى ترغمني أنا على طلب الطلاق.. يعني أنا لا عاوزة اتجوز ولا عاوزة ابقى مطلقة تاني.. أنا تايهة تايهة يانشوى .

- خلاص.. خديهم منه ونفقتهم ونفقتك كمان.. وشوفي نفسك بقى عاوزة إيه وهاترتاح فين وازاي ومع مين .

بالرغم من عدم وجود أسباب مباشرة تقنع أي مخلوق بطلاقي من فريد.. أو مقنعة بمعنى أصح من وجهة نظر الناس، إلا أني بالفعل لم أعد أرغب في استمرار علاقتي الزوجية بفريد.. لم أعد أرغب في استكمال المسرحية التي أقنع نفسي بها لاستمرار دور البطولة في حياة

أنا على الهامش فيها ككومبارس لا أكثر داخل عملٍ هو فقط المخرج والممول والبطل أيضًا..

قطع حديثنا اتصال هاتفي.. وكانت المتحدثة عمتي والدة فريد..

- كده ياندى.. عمتك ما بتوحشكيش ياوحشه انتي؟ مش تسألي عليّا ولو كل سنة مرة على رأي سيد درويش ؟

- واللهِ ياعمتى اليوم بيخلص ماعرفش ازاي متعفرت، مابين مذاكرة البنات وشغل البيت.. وعلى ما بروّق بيكون الليل هجم خلاص لا بقدر اروح ولا اجي.. ما انتي عارفاني بقى لخمة ولا حتى أعرف امشي في الزحمة بالعربية اللي من يوم ماعلمني عليها فريد ما سوقتهاش إلا كام مرة ومعاه، أنا ما بخروجش إلا مع فريد ما انتي عارفه بقى .

- أه يا حبيبتى طول عمرك من بيتكم لبيت جوزك اسم الله عليكي ست العاقلين ومش زي بنات الأيام دي.. . أه صحيح اسكووتي شفتي فريد قابل مين في النمسا ؟؟

- مين ! لأ ما عرفش؟

-ليلي.. بنت مرزوق صاحب البيت اللي كنا فيه في أسوان من يجي 25 سنة كده.. كنتِ انتي يادوب بتعرفي تمي هههههههه.

- أه فريد كان حكالي على أسوان واصحابه هناك.. مش دي جارتكم اللي..

قاطعتنى عمتي بضحكة عالية وبنبرة ساخرة:

- هو قالك !.. شوفي الواد بيقول لمراته على حبه الأولاني هههههههه كان بيموت فيها وهو عيل لسه شنبه ماخطش في وشه.

- أه أه حكالي فعلًا.. كان نفسه يتجوزها وقتها بيقولي.

بالطبع فبركت الجملة الأخيرة بسرعة لتشجيع عمتي على الاستمرار في الحوار دون مقص الرقيب.. فما يقال لبنت خاله.. لا يقال لزوجته إلا إذا كانت تعرف منه شخصيًا.

- قال إيه اتجوزت وعاشت هناك ولما جوزها مات حتى ما رجعتش مصر . هاترجع لمين يا ولداه أبوها وامها ماتوا وهي ماخلّفتش يعني لاعيل ولا تيل.. يبقى خليها هناك أحسن واهي لسه حلوة وشغلتها هناك مريحاها زي ما فريد قال لي .

كان هذا الحديث كافيًا لأن يجعلني لا أنام الليل ولا أركز بأي شيء أمامي سوى التفكير فيما وراء الحديث.. ولِمَ أخبر أمه بكل تلك التفاصيل أثناء اتصاله خلال الأيام التي سافر بها وما تحويه من معلومات وربما حكايات أيضًا بينما اتصاله لي لا يزيد عن دقائق الاطمئنان على البنات والبيت وعليَّ ودمتم؟

لماذا كل تلك التفاصيل عند عمتي ولَم يلمح حتى لي أنه قابل أحدًا يعرفه من مصر هناك صدفة؟

أرملة.. حلوة.. لها عملها هناك.. لا "عيّل ولاتيّل".. وكانت حبه الأول، وأمنيته في الزواج بها ربما استيقظت من جديد؟ أو ربما الصدفة لعبت لعبتها مع إنعاش عواطفه مرة أخرى بعد سنوات وسنوات ؟؟؟ ربما وربما ويجوز و...

دوامة من التفكير استمرت حتى جاء موعد وصوله إلى القاهرة .

*****

اتصل فريد بنا وأعلمني بموعد وصوله وعما إذا كنت أريد أي شيء من الهدايا قبل مغادرته النمسا لي أو للبنات.. لم يكن اتصاله بنا سوى شيء روتيني، ولكن هذه المرة كان مختلفًا؛ فقد لاحظت بهجة صوته وانتعاشة تعبيراته على غير عهده من وقت ما تركنا وسافر وخلال مكالماته الماضية.. بدأ الشك يتمكن مني بالفعل في علاقته بحبه القديم الذي وجده بالنمسا.. ترى هل لقاؤه بـ " ليلى" تكرر كثيرًا؟ وفيما تحدثا؟ وإلى أي مدى حوارهما أخذ مجراه ؟

هل تواعدا على الزواج؟ هل تزوجها بالفعل؟ ! ولِمَ لا فبحسب ما روت لي عمتي عنها وما ربطته أنا بغيابه وأسلوبه في الاطمئنان علينا كل أيام وبشكل بارد وروتيني وهو من كان لا يتحمل بعدنا عنه أيام قليلة وكيف الآن كاد أن ينسانا وخلال أيام قاربت الشهرين؟

عاد فريد

عاد بمظهر مختلف.. بدا أخف روحًا وأصغر سنًا وأكثر تألقًا وتأنقًا.. أمطرني بالهدايا والعطور.. صار يجاملني ويدللني بشكل مفرط أثار شكوكي بل وأكّدها.. تذكرت إحدى جمل " شذا " في جلسة سمر لنا في يوم.. "وأول ماتلاقى الوش بيضحك والبسمة من الودن للودن والورد عِرِف طريق بيتكم اجرري على جيوبه وقلّبها وعلى موبايله وفتشيه على جهاز الكمبيوتر بتاعه وفصصيه.. ساعتها هاتعرفي ان البيه بقى رومانسي معاكي تفريغ شحنة من مؤثر غيرك يافالحة منك لها.."

لا أعلم لما رنت بأذنيَّ تلك العبارة بالذات.. ربما هي ربطٌ بين ماعلمته وبين ما شعرت به الآن؟ أو ربما لأن بالفعل فضولي يدفعني بشدة إلى أن أعرف منه ما الذي حدث في النمسا ولِمَ لَم يخبرني كما أخبر أمه بوجود ليلى معه هناك صدفة إذا كان الأمر عاديًا؟ طالما أخفى عنِّي بالذات ولم يخفِ عن أمه إذًا بالأمر عِلة.. وإن سألته قطعًا سيكذب عليَّ.

تملك منِّي الشك وساورني القلق فبدأت أنتبه لمكالماته الهاتفية طوال مكوثه بالبيت لعلّي أجد ضالتي في نفي أو تأكيد ظنوني.. حتى جاءت اللحظة التي أمسكت فيها بجهازه المحمول على غفلة منه أثناء تناوله فنجان قهوته التركية المحبب له والذي لم يفصله عن حالة عشقه له أثناء ارتشاف قطراته سوى أن رآني أمسك به..حتى انتفض مختطفًا إياه من يدي بشكلٍ سريع مماجعل يدي تؤلمني من قوة مسكته له..

- إيه ده؟ مالك يافريد؟ بتعمل ليه كده؟

- ايه ياندى.. في ايه؟ افتكرت إني لازم اعمل مكالمة حالاااا لواحد صاحبي كنت ناسيها خاااالص..

- بالشكل ده ؟

- طيب وانت عاوزة موبايلي في إيه؟

- ولا حاجة كنت هاتفرج على صور الرحلة بتاعتك.. انت ما فرجتنيش عليها مش أكتر.

تغيَّر فريد..

صار يغلق مكتبه عليه لساعات حتى إنه معظم الوقت ينام به أيضًا.. حتى إن فراشنا صار باردًا أكثر من سابقه.. ربما كان بالسابق البرودة تأتي من عدم إحساسي بدفئه بينما هو كان يشتعل دفئًا بي.. الآن نال صقيع الهجر الداخلي لكلينا من روحينا أيضًا.. حتى تلامُسنا لم يتعدَ ارتطام قارورتين فارغتين تحدثان صوتًا ورنينًا مسموعًا، ولكن لا معنى ولا طعم له..

لم أعهده بالفراش هكذا.. كانت رغبته بي دائمًا أراها بعينيه قبل أن يفضي بها إليَّ.. أيقنت أني لم أعد أشبع حاجته لي إلا لكوني كما كنت أشعر دائمًا وكنت أعاتب نفسي وألومها على ظلمي له.. أنا فقط مجرد كائن من كائنات ذلك الكيان الذي يحوينا معًا.. ركن من أركان المنزل.. واجهته الاجتماعية لتكتمل لابد من وجودي .

كان لابد من زلزال يحركني وبشدة، زلزال يهز أركان حياتي الغريبة التي أحياها.. ووقفة لتعديل مسار حياتنا.. أو بمعنى أصح لانفصالي عنه بشكلٍ واضح ومعلوم للجميع.. شكل أنا من أحدده يكون هو أول اختيارٍ لي في حياتي.. وما أوجع أن يكون أول اختيار للبناء.. هدمًا.

*****

صارحت توأم روحي " نشوى " بكل التغيرات الحاصلة بيننا منذ عودته من السفر؛ من تصرفات واضحة وأحاسيس خاصة.. قلت لها إني أود الانفصال عنه.. لم أعد أتقبل وجوده بحياتي لا هو ولا أي رجل غيره .

- شوفي يا ندى.. إنتي فعلًا كده بتظلمي نفسك وبتظلميه بشكك ده.. اتأكدي الأول وبعدين شوفي تنفصلوا ولالأ.. بس اووووعي تيجى منك انتي.

-مش فاهمة ازاي يعني؟ عاوزاني اعيش معاه وانا حاسة انه بيخونّي يا نشوى؟ وما اقولهاوش؟

- ومنين عرفتي انه بيخونك؟ عندك دليل؟

- إحساسي عمره ماخانّي ولا كدبته.. وانا إحساسي بيقولّي انه في واحدة ست في حياته.. كمان حطي على إحساسي دي ظروف سفره وغيبته وتغييره الملحوظ ده.. والمكالمات اللي ليل نهار شغالة والهمس ووووو.

- طيب طيب بس اهدي كده واعرفي هاتعملي إيه الأول.. وانا هاقولك تعملي إيه.

- هاقوله طبعا في وشه ومش هاخاف كمان.

- لأ مش هاينفع من غير دليل.. بصي ياستي انتي تديله الأمان خاااالص.. سيبيله الحبل عالغارب.. خلليه يعرف انك مش مركزة معاه خالص.. فووووتي له وكأنك عبيطة مش فاهمة.. سيبى له الحبل لما يلف حواليه ويكتّفه كمان.. ساعتها هايبقى جالك متكتف.. اتشرطي انتي بقى عشان تفكيه.

- ياااه يانوشا ده انتي مشكلة هههههههه جبتها ازاي دي ؟

- أنا عشان بحبك وحاسه بيكي وصعبان على شبابك وجمالك وروحك الحلوة دي تتحبس وتتدفن بالشكل ده عاوزة اساعدك عشان تطلقيها وترفرفي كمان .

- ربنا يخليكي لي ياحبيبتي مش عارفة من غيرك كنت هاعمل ايه.

بالفعل نفذت خطة نشوى كاملة إلى أن وقع تحت يدي الموبايل أثناء نومه.. فتحته وشاهدت صورًا لها ومعه.. لم تكن أجمل منّي ولا هي بالقبيحة.. حلوة مقبولة.. أو هكذا رأيتها عادية ولكن لن أخدع نفسي بها جاذبية ما تشد من يراها ولو بالصورة.. لا يبدو عليها سنوات عمرها.. تصفحت أيضًا رسائل يومية بينه وبين ليلى تنبض حبًا وهمسًا وغرامًا وعبارات لا مفهوم لها ولا تفسير إلا أنها جزء من علاقة حميمة بين حبيبن أن لم يكونا زوجين بالفعل..

شطت غضبًا، أحسست بمشاعر الغضب والحنق، إحساس أن حقًا لي يُغتصَب وأراه بعيني وأقف متفرجة بلهاء لا حيلة لي إلا الصمت والبكاء وبداخلي بركان حمم وغضب سببه تراكم بداخلي من كل رجل.. كان أبي بطيبته المعهودة وتَماثُله لرأي أمي المتسلطة ورضوخي للزواج مرتين بمن اختاروه لي.. وجدى بغبائه.. فريد بخيانته ومع ذلك ظننت للحظة أنها غيره، ولكنها غيرة الأنثى على أنوثتها وليست على رجلها، ولكني تراجعت فورًا عن أن أضعف لإحساسي بأن هناك امرأة تأخذ منِّي حقًا لي وإن كنت أهملته.. لكن أنا أهمله ولا أقبل أن يهملنى هو.. أنا أرفضه ولكن لا أقبل أن يُفضِّل عليَّ امرأة عمرها ضعف عمري.

غرور أصابني فجأة أم كبرياء أم غضب لا أعلم إلا أنه في النهاية كل تلك المبررات والمسميات السبب فيها هو رغبتي في الخلاص من ذاك القيد الذي يربطني به.

كان لابد من المواجهة وقطع الشك باليقين.. باءت كل محاولاتي تجاه التصنع باللامعرفة بالفشل كانت عيني تفضحني وتصرفاتي وانتباهي لكل تحركاته ملفتة أيضًا حتى جاء مساء يوم بعد أن أنهينا عشاءنا مع البنات وناداني فريد أن أنتهي من الاطمئنان على البنات وألحق به في أمر هام.

أغلقت باب غرفتنا وارتديت قميص نوم مفضلًا له وتعطَّرت من أحدث قارورة عطر أتى لي بها بعد عودته هذه المرة.. وأخفضت نور الأباجورة بجوار السرير وتعمدت أن يستشعر ابتسامتي دون أن يراها..

وهو من أخبرني بكيفية رؤيته لي دون حاجة لإضاءة وهو ماتعود أن يكيل لي الاتهامات بأني عابسة لا أبتسم برغم ضآلة الإضاءة بالغرفة وكنت أتساءل كيف عرفت؟ فيجيبني أن خطوتي وأنفاسي تلقي على قلبه حالتي بل وشكل ملامحي أثناء قربه منِّي ولا حاجة لضوء ليراني به..

عمدت إلى النوم.. فما كان إلا أن اقترب منِّي يريدني.. لم يكن رد فعلي أيجابيًا ولكني تصنعت ابتسامة مبالغ فيها وقلت:

- ما افتكرش إني وحشتك أوي كده يا فريد.

-انتي وحشتيني أوي ياندى.. ليه بتقولي كده !

- يعني.. . انت عريس جديد.. هاوحشك ازاي وانت بقالك حضن تاني غيري!

لا أعلم كيف تسربت الكلمات بهذا النسق من فمي وما كان وقعها عليه إلا أكثر تعجُّبًا.

- إيه اللي بتقوليه ده يا ندى؟ عريس إيه وحضن ايه؟ انتي جرالك حاجة ؟

في هذه اللحظة ساعدني القدر وكأنها خطة رسمتُها معه لتنفَّذ في التو واللحظة.. رن هاتفه المحمول وكان قد أغلق رنينه ليحدث فقط اهتزازة حال تلقي اتصال عليه.. . انقضضت على المحمول.. وفتحت الإسبيكر(

السماعة الخارجية).. ونظرت إليه بحدة مشاورة له أن يرد.. وبمجرد أن ظهر همس المتصل صارت الحقيقة جلية أمامنا :

-"ألو.. فري.. انت نمت وحشتني أوي يا حبيبي".

لم يتمكن فريد من التفوه بلفظ ولا حتى " آلو".

انتفضت من سريري وأضأت النور بالغرفة، وأمسكت بالمحمول وأعدت رقم المتصل.. وسارعت بالكلام.

- ألو.. ليلى.. أنا ندى مرات فريد.. مبروك جوازكم ياعروسة.. بس لو انتي قبلتي تاخديه من مراته وبناته أنا مش هاقبل اعيش معاه وهو متجوزك .

وألقيت بالمحمول في صدره فقد كان جالسًا صامتًا في وضع الدهشة لم يرمش ولم يبرر موقفه ولم يتكلم إطلاقًا.. كل ما فعله أن أخفض رأسه في وضع المنهزم أو المقهور أو المتفاجيء.. لم أرَه في هذا الشكل أو الانكسار أمامي من قبل.. ربما كان حسرة انكشاف حيلته أمامي أو اتضاح كذبه ولكنها أبدًا لم تكن لحظة ندم.. ففريد يحبها وإلا لِمَ تزوجها برغم كل الفوارق بينهما ؟

انتقلت للنوم، للإقامة بغرفة البنات وطلبت منه الانفصال بأسرع وقت.. أصبحت عصبية لأتفه الأسباب.. عالية الصوت حادة النبرة . تطور الوضع بيننا وازداد سوءًا ورفض تمامًا فريد الطلاق خشية على بناته من أن ننفصل وأتزوج أنا فتضيع البنتان بيني وبينه أو ربما

تزوجت أنا على حد قوله وأصبح لهما زوج أم وهو ما لم يرضاه إطلاقًا لبنيته كما لن أرضى أنا على أن تعيشا معه بعيدًا عنى مع زوجة أب حال رضيَتْ هي أيضًا بذلك.. إذًا فالأمر لا اختيار فيه.. أنا لا أريده وهو يريدنا.. فلأبقى أنا ببيتى وببنتيّ ويرحل هو.

اتفقنا في النهاية على أن يترك أحدنا البيت حتى نقرر الأمر بيننا ومع أنني قد حسمت الأمر بيني وبينه إلا أنه أصرَّ على أن نأخذ وقتًا للتفكير ما دمت غير متقبلة أعذاره أو ما قام بفعله من الأساس.. وبديهي أن يخرج هو من البيت؛ فأنا لا أهل لي سوى عمتي وهي أمه، الأولى يذهب هو لها.. ولكن قراره كان أقوى من تفكيرى.. قال إني ما دمت مُصرة ولا أريد الاقتناع فسيذهب هو من حيث أتى؛ فهناك من تنتظره وتتلهف للقاه لا من تطرده من حياتها وبيته.

سافر فريد مرة أخرى.. عاد لعروسه وحبه الأول ليلى، وبقيت أنا لبنتيّ فقد اخترنا أن ننفصل مكانًا كما انفصلنا روحًا منذ سنوات.. فأصبحت لا متزوجة ولا مطلقة.. وقد أراحني الوضع قدر ما أرهقني.. صارت مساحة الفراغ لدي أكبر بكثير.. فراغ كنت أتمناه فراغًا من تفكيري به وبحياتي المبهمة معه والتي لم أشعر باستمتاعي بها كزوجة مرة على الأقل برغم عدم كرهي له إلا أنني لم أشعر بقوه تجذبني إليه، لا أعلم كيف مرت تلك السنوات ولازلت أحيا بلا مشاعر رفض أو قبول.. ربما كانت تحديدًا هي مشاعر استسلام من امرأة هشة من داخلها لا تقوى على اتخاذ قرارات ولا حتى الخاصة بحياتها.

ولأول مرة استشعرت طعمًا جديدًا على طعم خاص جدًا طعم الحرية وإن كانت محددة جدًا ونطاقها داخلي وهو الأكبر بالنسبة لي.. دائمًا ماكنت أشعر بروحي مقيدة مكبَّلة ولا أعرف قيودها أين وكيف التخلص منها. قيود بدأت مع بداية مرحلة المراهقة لي ودخولي من بوابة غامضة إلى عالم الأنوثة.. عالم كنت أجهله بكل آلامه ومباهجه.. لم يكن به من يرشدني أو يتعايش معي سوى " عهد " وما كان تأثيرها عليَّ وقتها سلبيًا قدر ما أصبح الآن.. وتزامن احتدام القيد مع زواجي.. وإنجابي برغم حبي لبنتيَّ إلا أني كنت أحيا وكأني بسراب أو حلم لا ينتهي.. ربما كان هذا الإحساس سبب فشل زواجي الأول وعدم إنجابى بسبب فتور العلاقة بينى وبينه.. وهو نفس السبب الذي كان يناجيني همسًا وسرًا ويدعوني للطلاق الثاني برغم تخطي مرحلة الإنجاب ووجود ابنتيَّ بحياتي.

" السيدة نفيسة "

لم أجد في تلك الأوقات ملجأ ولا ملاذًا إلا "نشوى" , لم يكن قريبًا مني سواها وقتما احتجتها وجدتها تسعى إليَّ قبل أن أبحث عنها أنا.. وصفت لها مابي من مشاعر مضطربة وان كانت ليست بجديدة عليَّ تلك المشاعر، ولكنها ازدادت حال شعوري بأن أول طريق اختياري بدأ.. أول بداية إعلان الرفض لواقعي بدأ.. بكيت وأنا أكتب لها وتمنيت أن ألقي بنفسي في حضنها.. سامحك الله يا أمي.. لم تشعريني يومًا بدفء حضنك بل كنتِ دائمًا الواعظ والمرشد والقاضي والجلاد معًا.. لم أشعر بحاجتي لحضنٍ يحتويني ويلملم أجزائي المبعثرة قدر احتياجي اليوم.. شعرت بهشاشة روحي وانكساري الداخلي جدًا كما لم أشعر به بنفس القوة والإحساس من قبل .

- عاوزاكي تهدي بس كده يا ندى.. اللي كنتي حاسبة حسابه اتأكدتي منه اهو.. إحمدبيربنا بقى انه جه وقت للخلاص من الحالة اللي انتي كنتي فيها دي .

- لأ يا نشوى مش بالطريقة دي.. أنا عمري ما بُحت له إني مش عاوزاه ولا قصَّرت معاه في حياتنا سوا ولا عمري فكرت ان في حد ممكن يكون مكانه أبو ولادي.. يقوم هو يرميني أول مايلاقي واحدة زي دي ؟

- مالها دي يعني يا ندى؟ مش قلتي لي انها كانت جارته وبيحبها من زمان؟

وكمان أرملة وغنية؟ يعني مش طمعانة فيه.. ده يمكن هو اللي طمعان فيها.. انتي بس مش مصدقة انك يحصل معاكي انتي ده.. عشان طول عمرك مستخسرة نفسك فيه.

- لأ يا نشوى أنا ماقولتش مستخسرة نفسي فيه.. أنا قلت لك ان في حاجة مفقوده بينا.. هو طول عمره معايا كويس وانا ماقصَّرتش معاه.. لكن دايمًا كنت بحس ان علاقتنا مش كاملة.. فيها حاجة مش فاهمهاها مش مخلياني احس طعمها.. مجرد شيء اتعودت عليه وخلاص.. لكن تيجي واحدة أكبر مني ومنه كماااان.. وتلف عليه وتخليني أنا رقم اتنين في حياته!! لأ ده مش هرضاه أبدًا.. هي كمان مش قليلة ولا وحشه يبقى ليه بقى؟؟ ليه تسيب الرجالة كلها وتاخد فريد من بناته اللي أنا راضية بعيشتنا عشانهم أصلًا ؟؟

-هاقولك أنا يا ندى..

تعرفي الفراشات ؟

شُفتي ألوانها حلوة ازاي.. ولما بنوصف حد بالفراشة يبقى بنقصد بيها انه حد جميل وخفيف على الكل والمكان اللي فيه.. حد بيخطف النظر ويمكن العقل كمان صح ؟

- صح..

- تعرفي بقى.. ان ليلى دي زي الفراشة؟

- مش فاهماكي يا نشوى انتي بتمدحي فيها ليه؟

- لأ مش بالظبط هافهمك قصدي اهو.

إنتي عارفة ان دراستي وعشقي للنباتات من أيام الكلية والدراسة ولحد الآن كمان.. أهي الفراشات دي على أد ما كلنا شايفينها حلوة ورقيقة إلا أنها بتضر الزرع.. تخيلي بقى؟

ليلى دي زي الفراشة الجميلة بالنسبة لفريد.. هيفرح بلفها وتحليقها حواليه.. هيتعايق بيها وتسر عينه وتشبع حواسه كمان.. في الوقت نفسه هتأذي زرعته.. اللي هي انتوا وهو مش عارف ده.. في نوع من الفراشات كده لما بتقف على زرعة أو حتى نخلة معينة.. شكلها بيبقى حلو والناس تتفائل بيها.. تاني يوم ماتشوفيش إلا الزرعة محروقة ودبلانة.

سيبيه يا ندى.. سيبيه يفرح بفراشته كام يوم.. وهايجيلك تاني.

- يجيلى بعد ما اتحرقت زرعته يا نشوى؟

- أه.. وازرعي غيرها انتي بقى هههههه.

- انتي بتتريقي عليًا وانا اللي بعيط من جوايا ؟

-لأ يا حبيبتي أبدًا.. أنا بس عاوزاكي انتي كمان تحلّقي وتطيري وتنسي الهم ده شوية.. كأنك لسه ما اتجوزتيش.. جربي كده وانا جانبك اهو فضفضي معايا في كل اللي انتي عاوزاه.. مش هاسيبك أبدًا ياروحي.

-ربنا يخليكى لي يا نوشا.. ساعات بحس إني اعرفك من زمان أوي.. ولو كنتي راجل يمكن كنت اتجننت و هربت وجيتلك هههههه يمكن تتغير فكرتي عن الرجالة.

- أيوة كده.. اضحكي وانسي الهم.. بصي يا ندى أنا هاقولك على اقتراح حلو أوي.. هاترتاحي لو عملتيه أنا عارفاكِ، روحي زوري السيدة زينب ولا سيدنا الحسين ولا أي حد من الأولياء اللي موجودين في مصر جانبك يمكن ترتاحي شوية لما تصلي وتدعي هناك باللي في نِفسِك، ياريتني جانبك في مصر دلوقتي.. ماكنتش سيبتك أبدًا.

استمررت على هذا الحال لفترة.. ولم تكن حالتي النفسية السيئة بالجديدة عليَّ، فقد اعتدت على اضطراب ما بداخلي ولم أعرف لي منه مخرَجًا، لا سيما تلك الأيام التي عقبت انفصالنا أنا ووفريد وبلا أوراق.. وما ترتب عليه في أن تصبح حياتي مجرد حياة بدون رجل في بيت الزوجية السابق هو محض اتهام.. بمعنى أنه لابد لي أن لا أكون بمفردي بلا زوج أو أخ أو ابن، المهم أن أكون تحت مظلة اسم مذكر والسلام، هكذا هو مجتمعنا الشرقي لا يثق في امرأة تحمي نفسها، لابد من ذكر يكون هو ظِلها ويحميها، وهل يحمي إنسان أحد غير نفسه؟ هل سيكون أمينًا عليها أكثر من نفسها؟ أم أنها مسألة اعتياد وأصبحت واقعًا لابد منه؟ خاصة وأني في عُرفِهم أصبحت كالمعلقة كما يقولون.. لا متزوجة ولا مطلقة .

حرصت ألا يصل ما بيني وبين فريد من شقاق إلى أهلنا.. على أن يعرف في أضيق الحدود من قِبَل أمه وأمي وأبي.. حتى بنتيَّ صار الأمر بالنسبة لهما.. هو اضطرار أبيهما للعمل بالخارج معظم السنة، والاتصال الشِبه يومي بهما كان يكفيهما لرد أي هاجس عن انفصالنا من مخيلتهما الصغيرة التي لا تستوعب معنى الانفصال في سنهما هذا. فلم يطرأ جديد على ما كان أثناء سفره الأخير.

*****

وفي أحد الأيام.. وصبيحة أحلام لم تنقطع وأماكن وأناس لم أعرفهم صاروا مرافقيني في نومي وأحلامي.. وبعد ذهاب البنات إلى المدرسة.. شعرت بملل من جو البيت والنت فكرت أن أخرج خارج أسوار المنزل. توجهت إلى دولابي الذي لم أعد أتذكر ما به من ملابس للخروج أو السهرات.. صرت أقلِّب فيه بدون هدف، أطالع فساتيني والتي لم أعد أتذكر ألوانها أو موديلاتها.. لم أكن أعلم وقت تجهيزي لها قبل زفافي بأيام أن مصيرها سيكون ما صارت عليه.. وبرغم كثرتهم إلا أن قطعة واحدة شدت انتباهي بل أعادتني إلى أيامٍ أحببت ذكراها.. عباءة سوداء كنت قد احتفظت بها من أيام زواجي الأول.. ليست كذكرى بالطبع ولكن كزيٍّ أعتز به وارتبطت به لفترة ليست بالقليلة.. سنوات الدراسة بالخليج.. وذكرياتها.. وصورة "عهد" التي لم تفارقني.. وباللدهشة والسعادة لازالت تستوعب جسمي حتى بعد أن زاد تلك "الكيلوات" البسيطة من أثر الزواج والإنجاب والمكوث بالمنزل طيلة الوقت.. إلاأني الحمدلله بشهادة الجميع لازلت أحتفظ بجسد فتاة لم تتزوج بعد..

ارتديتها ولففت طرحتي الحريرية البيضاء حول شعري ووجهي وأطلت النظر إلى قسماته..

" اتغيرتي يا ندى.. الحزن والتفكير علِم على وِشّك.. وشِك اللي كان الابتسامة مابتفارقهوش.. ايه اللي حصل لك؟ "

لم أطل الحديث مع نفسي وسارعت في الخروج من هذا الإحساس وهذا البيت بأكمله. وضعت نضارتي السوداء الشمسية على عينيَّ.. و نزلت إلى الشارع فورًا، توجهت صوب الجراج وأدرت مفتاح سيارة فريد الرابضة أمام المنزل تفتقد وجوده كإحدى بناته..

" عاوزة تتعلمي السواقة ليه يا ندى ؟ أي وقت وأي مكان عاوزة تروحيه قولي لي أنا ."

-يافريد على الأقل أخرج اوصّل البنات للمدرسه لو الباص ماجاش.. اروح ازور عمتي لما تكون انت مسافر.. هي السواقة كمان زي الجامعة؟

ربما هي إحدى حسنات فريد؛ أن قضى معي ساعات ليعلمني فيها القيادة خلال أوقات فراغه، ولا أنسى يوم استخراج رخصة القيادة بالنسبة لي كان كأكبر إنجاز اجتزته بمفردي وها قد جاء وقتها .

فتحت زجاج النافذة بجواري أتنفس نسمات الصباح وإن كانت مشوبة بعوادم السيارات وبعض الأتربة إلا أنني كنت أنتقي منها ما تحتاجه عيناي لتتنفسا وليست رئتي فقط.. وتوجهت إلى "مسجد

ومقام السيدة نفيسة "..وهو أقرب المساجد إلى قلبي وسكني أيضًا. ومنذ أول لحظة خطوت فيها المسجد.. بدأت الطمأنينة تتسلل إلى نفسي.. شعورغريب انتابني وتملكتني رغبة في البكاء.. لم أكن متحفزة لذلك ولم أفكر فيه مسبقًا. ولكني بمجرد أن دنوت من الضريح بدأت دموعي تنهمر غير مبالية بمن جواري أو من يسمعني صارت دموعي بوح بلا صوت.. كلمات بلا حروف.. نبض خاص ينطلق من داخلي يعرف طريقه إلى أين ولا أعرف أنا إلا أنني مع كل دمعة كانت تخف عن قلبي ثقلًا. استندت برأسي على جدار المقام المعدني اللامع ذي الرائحة العنبرية المميزة.. برودة سورالمقام كانت مثل الكمدات الباردة على رأس التهمتها حرارة الحمى فصارت تهدأ ومعها يهدأ نبض قلبي. أغفلت عيني إلى أن انطلق الأذان لصلاة الظهر ولا أعرف كم من الوقت مضى فقد غفوت ودموعي تنهمر براحة عجيبة.. انتظمت الصفوف التي لم تتعد الصفين في مصلية النساء ولم أُدرِ بنفسي عقب انتهاء الصلاة إلا وأنا أرفع يديَّ إلى السماء وأنا جالسة مكاني وأقول :

- يا بنت بنت النبي.. يا حبيبة المصطفى لإشفعي لي عند جدك يشفع لي عند الحبيب الأعلي.. أنا ضعفت وبئست وكرهت دنيتي.. ساعديني واطلبي لي المساعدة.. يارب يارب خد بإيدي وهوِّن على اللي اخترتهولي .

فإذا بي أجد من تحنو عليَّ وتناولني منديلًا ورقيًا بابتسامة طيبة وهادئة قائلة:

- صلى عالنبي يا بنتي.. مادام جيتي لحد عندها أبشري.. مش هاتخليكي تمشي من غير ماتراضيكي، بصي كده بصي على اللي مكتوب في البرواز اللي على الحيطة ده..

توجهت بنظري صوب ما أشارت إليه.. كان إطارًا خشبيًا ذهبي اللون يحيط بأبيات شعرية كُتبت مخصوص للسيدة نفيسة رضى الله عنها.. مكتوب به:

" ما خاب من زار النفيسة مخلصًا.. إن النجاة لدى كريم لقاها " .

كانت سيدة تبدو بمنتصف الخمسين من عمرها تقريبًا.. بيضاء البشرة نحيفة الوجه دقيقة الملامح.. عيناها العسليتان برغم ضيقهما إلا أن لمعتهما وبريقهما ملفتًا يوحي بجمال ونقاء سريره.. وجه مريح ألمَّت به بعض التجاعيد والخطوط الدقيقة على جبهتها وبجوار عينيها ومما زادها تميزًا، ابتسامتها البسيطة المريحة.. يدها تنفر منها العروق، ذات أصابع رشيقة رفيعة محلاه بخواتم تحتوي على أحجارٍ ذات ألوان تجمع بين الأخضر والفيروزي .

- انتي من مصر؟ من القاهرة يعني ولا من ضواحيها ؟

-أيوة ياحاجَّة أنا من القاهرة.. بس أول مرة ازور المقام.

- عشان كده.

قالتها بابتسامة أضاءت وجهها وجعلتني أبتسم بدوري دون أن أعرف ماذا تقصد بكلمتها "عشان كده ".

مادام قصدتي بيت حبايب المصطفى اطمني خالص هاترتاحي ويتطمن قلبك ويقر عينك أن شاء الله باللي نفسك فيه .

- أنا نفسي بس ربنا يهدي لي نفسي وابقى مطمنة زي ما بتقولي كده..
- وانتى إيه اللي قالقك يا ست البنات ؟

- هههههه ست البنات الله يجبر خاطرك يارب. أنا متجوزة وعندي بنتين.

- وماله ربنا يخللي، بردوا ست البنات.. انتي مش عارفة إن البنى آدم مننا روحه بتطغى عليه وعلى ملامحه؟ وانتي باين روحك طيبة ونفسك راضية.

- ازاي بس ده أنا حاسه إني كبرت عشرين سنة على عمري.. اللي شُفته في سني الصغير ده أكبر من أي واحدة في سنى.. الكل بيحسدني على اللي أنا فيه.. وانا بس اللي مش مستمتعة به ولا حساه حتى .

- لاااا لا دايما افتكري الأقل منك هاتلاقي انك في نعمة كبيره يا.. إلا انتي اسمك إيه ؟

-ندى

- عاشت الأسامي يا أرق من الندى.. . أنا اسمي راضية.. وبيقولوا لي يا أم الرضا.

*أهلًا وسهلًا يا أم الرضا.

-شوفي يا ندى لو كل واحدة قابلتها مشكلة مع جوزها ولّا عيالها ولّا حتى شغلها حبست روحها جوه نفسها كده محدش هايعيش مرتاح.. البني آدم مننا متقسم حتتين.. قلب وعقل.. روح ونفس يفضل عمره كله يصارع نفسه وروحه ومابيخلصش الصراع ده إلا بانتصار واحد فيهم.. فيا ترى انتي مين الأقوى عندك ؟؟؟

فكري ده وتدبري أمرك ولما توصلي لحاجة.. تعالي هنا هاتلاقيني دايمًا.. مش باجي كل يوم بس اليوم اللي هاتعوزيني فيه أنا هاحس بيكي وهاجيلك .

*****

عدت إلى منزلي وأنا أشعر بحالة ارتياح عجيبة.. استقبلت فرح وهنا بحضنٍ دافئٍ جدًا استشعرت حلاوته أنا قبلهما كما لو كنت عائدة من سفر بعيد وبعد غيبة طويلة.. تناولنا غداءنا وذهبت إلى غرفتي ملقية بجسدي فوق فراشي كنت أحتضنه لا ألقي به عليه ككل يوم.. حالة من الارتياح ربما أكون أوهمت نفسي بها لكنني راضية شعور بالهدوء جعلني أنام نومًا عميقًا كما لم أنَم من قبل.. وما إن استسلمت للنوم إلا ورأيته .

خيال مبهم غامض لا ملامح تصفه كما لو كان جسدًا تحوطه هالة نورانية من فرط شدتها تخفي ملامحه.. كل ما اتضح منه هو ابتسامة

مشرقة مبهجة وطيفٌ فقط لملبس تميَّز بعمامة بيضاء ناصحة البياض يتخللها رسومات زخرفية خضراء كُتِبَ عليها بالخيوط الذهبية حروف كمن يرتديه دراويش أولياء الله الصالحين.. ورائحة البخور تملأ المكان وأثر دخانه يغطي ملامح هذا الرجل الذي لم أتبين سوى بياض بشرته وحُمرة شعيرات ذقنه الكثيفة المتدلية لتغطي عنقه. ملامح كدت أتعرَّف عليها أو أن إحساسي بها مألوف بالنسبة لي ولا تتضح ويده الممتدة لي والتي يفصلها عنِّي شيء غير مرئي.. حاولت أن ألمس يده لم أستطع كانت المسافة برغم قصرها إلا أنها مستحيلة للتلامس..

أفقت من نومي وكأنها كانت مجرد غفلة للحظات. استيقظت وأنا أشعر أني بين الأرض والسماء.. إحساس عجيب ولطيف وغامض انتابني.. كما ريشة نعام، تحسست جسدي مرورًا بعنقي نهاية بأخمص قدميَّ.. فشعريرة سرت بجسدي طالت روحي ومسَّت شغاف قلبي.. خيال جامح نالني وحلَّق بي في أعالي السماء.. لم أشعر إلا وروحي سابحة في رحاب الرؤية ومن كان بها.. لازال عبق وأريج حضوره يحملني إليه.. إلى سراب أو لا مرئي لم دركه ببصري ولكني أشعر به بوجداني أو ربما تمنيت أن يكون بالفعل هناك سببٌ ملموسٌ لهذا الإحساس..

تمنيت لو أني أظل نائمة ليستمر الحُلم أو لأعرف له تفسيرًا أو مدلولًا.. وددت أن أجده بالفعل أسأله.. من أنت؟ وماذا تريد؟ ولِمَ لَم أستطع أن أمسك بيدك الممدوده لي؟ وأنت على مقربة منِّي وأنا احتجتك ومددت يدي؟

فكرت أن أفتح "اللابتوب" وأبحث عن نجوى: فهي من تريحيني في حوارها الصادق الحنون والجاد أيضًا أو أن أحادث نشوى وأحكي لها.. ولكن في نفس اللحظة تجلت أمامي صورة أم الرضا وكلامها لي..

"فكري كده وتدبرة أمرك ولما توصلي لحاجة.. تعالي هنا هاتلاقيني دايمًا.. مش باجي كل يوم بس اليوم اللي هاتعوزيني فيه أنا هاحس بيكي وهاجيلك."

بعد تفكير سريع قررت أن أذهب في صباح الغد إلى أم الرضا.. وبالفعل في صباح اليوم التالي وبعد الطقوس المعتادة وانتهاني من إعداد الطعام وتنسيق المنزل وما إلى ذلك من عمل لا ينتهي بالبيت.. وانتظرت حتى عودة بناتي من المدرسة و ارتديت ملابسي وانطلقت صوب السيدة نفيسة.. كان وقت صلاة العصر.. توضأت وتوجهت لصفوف المصليات والتي لم تتجاوز الأربعة صفوف.. عند تساوي الصفوف، وجدت مكانًا فارغًا بين الصف الأول دخلت فيه وأقيمت الصلاة. وعند الانتهاء والسلام من الصلاة، وجدتُها بجواري على يدي اليمنى، راضية بابتسامتها المشرقة .

- نمتي كويس يا غالية!

- نمت وحلمت وجيت ادوَّر عليكي يا راضية زي ما قُلتي لي .

- انتي مش بتدوري عليَّ انا يابنتي.. انتي بتدوَّري على روحك التايهة.. وعشان تلاقيها لازم تشيلي من قدامها كل اللي مخبيها منك ومخليها في الضلمة ماتُشوفش النور .

- روحي التايهة؟ أشيل اللي قدامها ازاي؟ أنا من يوم ما وعيت ع الدنيا غيري اللي بيختار لي.. من أول أمي وأبويا لحد جوزي ويمكن ولادي كمان.

- اللي جواكي انتي بس اللي تقدري تنضفيه.. ترتبيه.. تهديه وتبنيه تاني لو عاوزة. بس انتي اعرفي الأول انتي عاوزة إيه.

- أنا عاوزة إيه؟طول عمرى بسأل نفسي السؤال ده ؟ أنا عاوزة إيه؟ وليه مابعرفش أكون مبسوطة زي ما كنت طفلة؟ عاوزة إيه من الدنيا دي كلها؟ حتى كتير كنت بتمنى اموت وارتاح منها.

- والموت بقى هو الراحة اللي انتي عاوزاها ؟

-الموت هو النهاية دايمًا.. لكل حاجة نهاية ونهاية الإنسان الموت .

ابتسمت أم الرضا ابتسامة عريضة ساخرة وقالت :

-انتي ماحبتيش يا ندى؟

- حبيت !!

أنا اتجوزت واتطلقت واتجوزت تاني وخلفت اتنين وانا عمري لسه ماجاش تلاتين سنة اهو.. وماحبيتش الحب اللي بيقولوا عليه اللي في سني.. حب ست لراجل.. حب يخليني اشتاق له واستناه واجري عليه لما اشوفه و ابقى نفسي ماسيبهوش ولا ثانية عشان هو الحياة بالنسبة لي.. لكن الغريبة بقى إني فعلًا حاسة بقوة الحب ده من غير ما اعيشه.. ساعات بلاقي نفسي كده من جوايا زي ما أكون عاوزة اخد نفس هوا كبير أوي.. واغمض عينيا عن كل اللي حواليا واشم بس ريحة الحب ده.. بس عمرى ما حسيت ان ده معناه أن في حد يستاهله أو حتى يكون سببه.. أنا أساسًا كرهت الرجالة يا راضية كرهتهم .

- هو الحب لازم يكون لراجل بس يا ندى؟

الحب اللي أقصده هو اللي خلاكي تيجي هنا.. الحب اللي ربنا خلقنا بيه وعشانه.. المحبة ياندى.

- المحبة ! ربنا خلقنا عشان نحب؟ طيب أنا ليه ماحسيتش الحب ده؟

- عشان انتي جواكي نفسك اللي بتأمرك دايمًا.. ومخلية قدامك كل حاجة مش كاملة كل حاجة حلوة لها مرارة في حلقك مش مدياكي فرصة تستطعميه لوحدك من غيرها ومن غير أوامرها..

- صح أوي أنا كل حاجة في حلقي مرة مافيش حلاوة استطعمها كاملة. عرفتي ازاي؟

- مش محتاجة معرفة.. البني آدم ربنا خلقه نفس وروح وجسم.. الجسم بيشيل الروح والنفس هي اللي بتمشي الاتنين.. زي القطر كده عربيه بتشد التانيه واللى بيسوق هي النفس.. عشان كده دايما تزيين لنا الشين زين يعني الحاجة الوحشة حلوة.. أومال يابنتي ماهي أمّارة بالسوء.

- طيب مش ربنا اللي خلقنا يا راضية وهو اللي عارف جوانا ايه؟ ليه بيسلط علينا النفس دي؟ وليه روحنا بتتبعها ومش العكس؟

- شوفي يا ندى ببساطة كده النفس اللي جوانا ثلاث أنواع أمّارة بالسوء ونفس لوامة ونفس مطمئنة.. وعشان نوصل لأعلاهم دي "المطمئنة" لازم نجاهد الاتنين.

- يبقى نموت روحنا يعني عشان نخلصها من السوء اللي بتأمرنا بيه ده؟

- لأ يابنتي.. النفس دي زي الجبل عشان توصلي للقمة وتسيطري عليها لازم تطلعي واحدة واحدة بهدوء بسياسة.. سايسيها لحد ما تسيطري عليها وتوصلي القمة.. إنما لو جريتي ونطيتي قلبك هايقف قبل ما توصلي.. ولو وصلتي بسرعة هاتنزلي أسرع -فهماني؟

-فهماكي بس بحاول استوعب عاوزة افهم أكتر كمّلي يا أم الرضا كملي..

- قربي من ربنا أوي يابنتى.. خلّي صفاته هي اللي تسيطر على اللي جواكي.. القوي بيطرد الضعيف.. الصح بيزيح الغلط من قدامه.. قوّي روحك الطاقة اللي جواكي خير وكبيرة بس نفسك هي اللي بتخليكي

يتهيألك انك ضعيفة وانتي أقوى منها بحبك لربنا ورضاه عليكي روحه الطاهرة اللي نفخ فينا منها هاتغلب على الشر اللي بيحوم حوالينا دايمًا وفي أقرب الناس إلينا كمان.

- كلامك بيريحني أوي يا راضية.. مش عاوزة اسيبك ولا اتكلم وافضل أسمعك كده .

- لأ، أنا مش هاطوّل عليكي دلوقتي.. بس نصيحة، حاولي تقعدي كده مع نفسك وسبحي كتير واستغفري وانتي بتستغفري غمضي عنيكي.. وفكري واستخيري ربنا.. انتي عاوزة إيه؟ وماتنسيش ان ربنا خلق لنا الدنيا واللي فيها عشان نستمتع بالحلال، نستمتع بجمال كل ما خلق من غير مانعصيه .

مرَّ الوقت مسرعًا والحديث بيننا لم ينقطع ولكني انتبهت إلى ضرورة العودة إلى المنزل قبل أن تنزل ستائر الظلام على قُرص الشمس ويفتح بسببها طاقات السؤال والاستفسار والتهكم من عمتي أم زوجي وأخواته عن سبب عدم وجودي أو خروجي وترك بنتيَّ وحدهما ودون علم أحد منهم.. سلمت عليها وودعتها على أمل اللقاء كلما سنحت لي الفرصة..

- لأ هاتيجي وقرّب أوي كمان.. بس وانتي جاية ابقي هاتيلي معاكي " السبحة " .

*****

حديث أم الرضا لم يبرح تفكيري.. الروح والنفس؟ هما من يتحكمان فيَّ.. تقودني نَفسي للشك والحزن وعدم الرضا.. بينما روحي لا أعرف أين هي.. ومن تنتظر.. وما الذي يرضيها ويسكنها في جنبي لا تزعجني ولا تؤرقني.. متى تسكن روحي وتهدىء من روعي وقلقي الدائم؟

تكرر حلمي بنفس الرؤية أكثر من مرة، وفي كل مرة أستيقظ وأنا لاهثة محاولة الوصول إلى يد هذا الطيف هذا النور الذي أعرفه ولا أعرفه.. ذاك الذي يزورني بالمنام والأعجب أنني عند استيقاظي أجد رائحة البخور تملأ الغرفة التي أنام بها مما جعلني لا أدري أهو حلم أم واقع فأجدني أستيقظ متلفتة في أرجاء الغرفة باحثة عنه.

تملكني إحساس عجيب لم أتذوقه من قبل ولم أجد لمذاقه تفسيرًا.. حِرتُ في أمري وما أصابني من مشاعر خفية غامضة ولكنها محببة إلى نفسي لم أبغضها أو أتملل منها.. وجدتني أود أن أحكي لأحد عما بي.. أسأله عمن زارني بالمنام وما شعرت به ومنه وله.. خطر على بالي أن أتجه لصديقات الغربة والعالم الافتراضي.. صديقات جروب "كافيه العصاري"..

فتحت "اللاب وادرت" موسيقاي المحببة إلىَ مزيج من الناي والعود للحنٍ تميَّز بهدوئه لكلمات تغنت بها أم كلثوم في فيلم رابعة العدوية.. وخِلتني أتغنى أنا بها في شجنٍ دافىءٍ..

سألت عن الحب أهل الهوى .

سقاة الدموع ندامى الجوى

قالوا حنانك من شجوه..

ومن جده بك أو لهوه

بحركة وتصرُّف لا إرادي، فتحت محرك البحث الإلكتروني وكتبت مواصفات من رأيته وملامحه؛ رغبة مني دون أن أفكر مسبقًا بتلك الخطوة أن أراه مرة أخرى أو من يشبهه.. وللعجب ظهرت أمامي صورة هي أقرب ماتكون لنفس الشخص الذي رأيته بالمنام..

-هو.. أهو أهو يا راضية تعالي شوفي

- هههههه أنا شايفة اهو يا ندى.. هو ده !!

- أيوة هو يا أم الرضا.. نفس الابتسامة ونفس اللبس اللي شفته بيه.. بس ده مش باين بقيته.. الصورة جايبه وشه بس والعمامه اللي على راسه كمان لونها والكتابه اللي عليها..

- طيب طيب أنا مصدقاكى..

- ياترى ده اسمه إيه ؟

وهو مين؟ ومنين؟ وديانته وجنسيته..

- بس بس بس يا ندى.. عاوزة تعرفي كل ده ليه؟

-ليه ؟ أقولك وهاتفهميني صح ؟

مبتسمة: أكيد أنا فهماكي صح مش لسه هافهمك.. انتي حبيتي الروح دي.

-حبيتها؟ تقصدي حبيته؟ ومن غير ما اعرفه؟

- أيوة وهو كمان بيحبك.

- بيحبني؟ ازاي ده؟ هو مين وحبني إمتى وازاي وانا إيه اللي خلاني احس الإحساس ده ناحيته وهو حلم .. حلم مش اكتر؟

- المحبة يا ندى مايلزمهاش معرفة ولاتفاصيل للمحب. المحبة عطاء من غير مقابل.. مالهاش شروط غير الحب للحب والخير والجمال وبس.. مش مهم بقى مصري ولا هندي مسلم ولا مسيحي غني ولا فقير.. الحب في الله ولله مالوش معيار ولا دين ولا جنس وطالما حسيتي انك حبيتيه يبقى هو في الأصل في رباط بينكم روحي كان السبب في الإحساس ده .

- أنا فعلًا مانكرش إني من لحظة ماحلمت بيه والحلم مسيطر عليًا.. خاصة الحاجة اللي اداهاني ووقعت مني دي.. ومالمستهاش لسه وصحيت من النوم.. نفسي أعرف اداني إيه؟ وليه؟ ووقعت ليه؟ وليه مامسكتهاش؟

- ماتستعجليش الإشارة..

- إشارة؟

-أيوة الإشارات جايالك كتير.. من أول ماقابلتك في مقام ستنا نفيسة ولسه اللي جاي.. المهم انك تستقبلها بقلبك.. خللي النور اللي جواه يدلك.. سيبي نفسك عشان تلاقي روحك .

-كلامك حلو وغريب يا راضية.. أسيب نفسي عشان الاقيها؟

- لأ.. سيبي نفسك عشان تلاقي روحك.

خدي.. امسكي السبحة دي.. قولي عليها لحد ماعينك تغفل وتنامي: ياحي ياقيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين .

- ياحي ياقيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين . ياحي ياقيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين .

-ماما.. ماااااااااااااااماااااا.. ردي عليًا بقى انتي بتتكلمي وانتي نايمة هههههه وكمان نايمة على اللابتوب بتاعك.. إلحقي يافرح ماما نونو نامت وهي قاعدة!!

انتبهت على صوت فرح وهنا وضحكهما المتدرج في العلو والبهجة والسخرية معًا ولكن بطعم البراءة.. ماذا حدث لي؟ هل لازلت أحلم؟ لا لم يكن حُلمًا.. اللابتوب مفتوح بالفعل.. وراضية كانت هنا معي وأمامي تحادثني وأحادثها.. نعم هي هنا.. راضية.. راضية أين أنتِ؟

ها هي المسبحة التي أعطتني إياها منذ دقائق.. لم يكن حُلمًا لم يكن حُلمًا.

*****

غريبة هي تلك الحياة.. تصارعنا وتدفعنا بأحداثها.. أشعر بها تجتاحني كشلالٍ تندفع مياهه من أعلى ليرتطم بهدوء ببحيرة ساكنة.. قوته تحدث فقاعات متتالية ومتجاورة.. سريعة شديدة التلاحق والتلاصق أيضًا.. لحظة بلحظة تتقارب – تتلامس ولا تلبث أن تنصهر بداخل بعضها تمتزج جزيناتها فتذوب وتتلاشى في كيانٍ واحدٍ ينصهر بذات البحيرة تتسع بؤرة التجمع لتعم البحيرة كلها.. تصبح الذرات كلها واحدة – تنساب المياة تتدفق معًا. لا فرق بين فقاعة وبقعة ماء الكل واحد.. ويستمر الشلال في رطم البحيرة وتستوعب البحيرة تلك الفقاعات ومن ثم تنهمر وتسير في مجراها. وإلى أن تستقر بمجراها الطبيعي عليَّ أن أصمد و أحتمل التغيرات والصدمات.. إلى أن أصل إلى ما أريد عليَّ أن أصبر وانتظر..

- أخبارك إيه يا شذا.. وأخبار أحمد إيه لاقتيه؟

- أبدًا يا ندى.. أنا يومي اتبدل وحالي اتلخبط.. كان هو اللي مواسيني ومخليلي للدنيا طعم غير المُر اللي ماليها كان مهوّن على عيشتي بكلامه ونصايحه لي.. تصدق إني بقيت اغلط وانادي على ابني وأقوله يا احمد.. من كُتر ما بفكّر فيه وفي غيابه.. لدرجة إني اتهيألي انه كان حلم مش حقيقي.

-حلم !! انتي كمان ؟؟

-أنا كمان إيه يا ندى؟ مش فاهمة.

- لا أبدًا.. بس اصلي مستغربة هو ممكن بعد ما اتكلمتوا كتير كده يكون تهيؤات أو حلم؟ تقدري تحسميها ازاي دي؟

- يابنتي حتى لو حلم.. الحمد لله أنا فرحانة بيه على الأقل ريحني شوية من الضغوط اللي على قلبي.. حلم لحظات حتى خلاني افك عن نفسي حمول شيلاها لي المحروس جوزى سنين.. بس لو ده حلم تفتكري مشاعري دي كمان يا ندى كانت حلم؟ أنا لحد الآن بفكر فيه وبتكلم معاه لما تقابلني مشكلة.. بفتكر نصايحه واعملها كأنه قدامي.. تفتكري

ممكن الواحدة تنسج بخيالها حلم وتصدقه؟ تبني بإيديها تمثال وتعبده مثلا ؟؟

-ياشيخة.. تعبده إيه بس وجِدي الله.

هو بس مشكلتك انك مش لاقية اللي يفهمك.

- هههههه ضحكتيني يا أم فرح.. ده أنا؟؟

على أساس انك مش صفحة تانيه من كتاب كل صفحاته ستات مش لاقية اللي يفهمها ؟؟

-صدقتي.. طيب ماتيجي نساعد بعض بجد.. أنا محتاجة اللي زيك وانتي محتاجة اللي زيي وكلنا في الجروب محتاجين بعض.. مش بس للرغي والضحك.. يعني لو اعتبرتيني أنا مكان احمد وانا اعتبرتك مكان فريد.

- اييييييه.. إيه اللي بتقوليه ده هههههه انتي مالك النهارده إوعي تكوني من اياهم يا ندى هههههه.

- يابنتى أبدًا الله يكرمك افهميني صح.. وبطّلي تريقة على كل كبيرة وصغيرة.. أنا أصلي بتحصل لي حاجات غريبة الأيام دي أوي.. أحلام مش عارفة ولا بجد أنا بقيت مش عارفة حاجة.. كل اللي عارفاه إني حاسه بروحي خفيفة أوي ومش عارفة أوجهها.. حتى نشوى كلامي معاها بقيت احسّه طعمه مختلف أو مابقناش فاهمين بعض زي الأول..

-مختلف ازاي يعني؟ دي مابقتش ترد على حد مننا خالص وسابت الجروب.. وشكلها جرى لها حاجة هي كمان، اختفت تقريبًا هههه لا تكون اتجوزت!.. هي بتكلمك؟!!!

تعجبت لكلام شذا عن نشوى.. فهي على اتصالٍ دائمٍ معي من خلال الرسائل على الجوال أو الشات ولو كان رقم برنامج المراسلة على الجوال أستطيع التحدث معها منه لفعلت حتى أطمئن عنها وأُطمئِن باقي الجروب فهي من كانت تراسلني مؤخرًا وأنا من لم ترد عليها بسبب تشتيت فكري وانشغالي.. وإحساسي من آخر حوار لنا؛ أني أثقلت عليها بمشاكلي حتى إنها تهربت منِّي بحجة موعد الطبيب.. شعرت بأن أصابها الملل منِّي وعجزت عن استكمال نصائحها لي .

توجهت إلى صندوق بريدي الإلكتروني وبالفعل وجدت رسائلها وآخرهم كانت أقواهم على الإطلاق.. رسالة هزت كياني وزادت من شتات نفسي.. تمنيت أن تكون ضمن كابوس وانتهى منه .

حبيبتي ندى:

أكتب إليكِ بعد تردد دام لأيام وأيام.. أرسلت لك للاطمئنان عليكِ مرارًا ولم تُجبِني ولو بكلمة.. وهذا ما جعلني في حيرة من أمري وقررت أن أكتب لك الآن ولا أدري هل هو التوقيت المناسب أم لا.. ولكني على يقين أنه التوقيت المُلح بالنسبة لي .

ندى.. أعلم أنني الأقرب لك من جميع الصديقات وأنتِ أيضًا يعلم الله مكانتك في قلبي ومدى تعلُّقي بك وشغفي لإخبارك دومًا.. قد استمعت لكِ مرارًا بقلبي قبل عينيّ من خلال ما تبادلناه من رسائل على مدى شهور مضت.. فهل لي أن تنصتي إليَّ بقلب وعقل متفهم لما سأقول !

في بداية تعارفنا من خلال الجروب لا أنكر أنني كنت أتوق إلى ماتكتبي منذ بدأتِ تعرّفيننا بنفسك.. كان لأسلوبك حلاوة تترك بصمتها على القلب.. جذبتِ انتباهي بحكيك الرّاقي المهذب غير المفتعل.. بدت كلماتك كأنها ترسم ملامحك ومنها غُرِستِ في قلبي وصرتِ موجودة بالفعل في حياتي ويومي لا كشخصية افتراضية من عالم موازٍ.. بل كأخت وابنة وصديقة.. وأحيانًا أُمّ وحبيبة أيضًا.

ولا أنكر أنني مَن حاولت أن أجعلك تبوحين لي بشكلٍ خاصٍ بعيدًا عن المجموعة بشكل عام.. وعن صفحات الجروب وأن أجد رابطًا خاصًا بيننا نكون فية أكثر قربًا وصِدقًا وعمقًا داخل نفس وقلب وحياة كل منا .

أصبحت أنتِ من تحلو بها مرارة أيامي.. أصبحتِ بحياتي ويومي إدمانًا ولا أود التعافي منه.. ارتشاف كلمات منك يوميًا له مذاق الكمال في كل يومي.. حتى دموعك التي كانت تنهمر على بُعدٍ كنت أشعر بانسيابها على وجنتيَّ.. فيبلل عطرها وجهي فأستشعر وجودك بجواري.. ألفت مشاكلك واضطراباتك وصرتِ جزءًا منّي دون أن أدري.. لم أكن بالنسبة لك أم أو صديقة فحسب.. بل أنتِ من كنتِ دون أن تدري أمي وابنتي في آنٍ واحدٍ.

تمنيت أن أرى فريد فأعنّفه على عدم احتوائه لك.. وكيف تكون جوهرة مثلك بين يديه ويدع الأتربة تنال من بريقها فتطفئه وتُذهِب بريقها.. تمنيت أن أراك أنتِ فأضمك إلى صدري وأنتزع كل أوجاعك لتسري ببدني ولا أنها تؤلمك لحظة..

تمنيت أن أراكِ وتريني على الواقع وليس بين السطور.. تأسفت جدًا عندما طلبتِ رقم هاتفي ولم أجب بما انتظرته أو تمنيتِه بحجة الظروف والأولاد وأموري الخاصة.. وفضلت أن تكون مراسلتنا هاتفيًا على أحد برامج التواصل دون معرفة مكان أو رقم المراسل.. أعلم أنها كلها تساؤلات خطرت على بالك : "ماذا لم تعطِني نشوى رقم هاتفها أو تجعلني أتصل بها وقتما أحتاجها ؟لماذا لم تثق بي وأنا من أوليتها كل الثقة؟

ندى..

أنا من شجَّعتك على قرار الانفصال بطريقة غير مباشرة عن فريد.. حيث شعرت أن راحتك ستكون حال انفصالك عنه.. حال معرفتك ماذا تريدين أنتِ بنفسك.. حينما تضعين قدمك على طريق تختارينه بنفسك لا يُفرَض عليكِ.. قرار الانفصال هو كان الخلاص لك من حالة الانفصام التي كنت تعيشها.. وحينما علمت بانفصالك عنه دون طلاق تألمت.. ليس للانفصال ولكن لأنه لم يقع الطلاق فعليًا بينكما.. وقتها أصابتني حالة من السعادة المشوبة بالحزن.. شعرت بأنني أنا من تحررت من قيدٍ.. ولكني لم أكن أعلم أن تحررك سيكون قيدي أنا.. لا تتعجبي من كلامي فستعرفين الرد على تعجبك هذا خلال الأحرف القادمة..

ندى.. طلبتِ منّي ذات مرة أن أسمعك صوتي أو تمنيتِ وتمنيتُ أن نتقابل فعليًا..

في نهاية الرسالة تجدين ردي في حروف بسيطة.. وإن كان لازال طلبك وأمنيتي متاح تنفيذها.. لن يسعني الكون وقتها.. ردك بالصمت . رفض . وبكلمات بسيطة تضيئين حياتي بأكملها.

وأرجو ألا أصبح لك مجرد ذكرى.. فقد تمنيتك لي حاضرًا.. ومستقبلًا .

" شريف "

فركت عينيَّ بشدة؟ ! انتفضت من مكاني غير مصدقة ما خُتِمَت به الرسالة من توقيع؟ ولم أتفهم أي شيء.. عاودت القراءة مرات ومرات وفي كل مرة أتوقف عند الاسم وأعيد القراءة بل أعيد كل ما دار بيني وبين نشوى.. أو شريف من حوارٍ على سبيل أنه امرأة مثلي !!!

نشوى.. شريف !!!!

من شريف؟

وكيف ؟

ولماذا ؟

نشوى رجل ؟؟

من بُحتُ لها بكل كبيرة وصغيرة لخبايا بيتي ونفسي ما لم أُبِحْ بها لزوجي أو أمي أو إخوتي.. رجل؟

من قصصت عليها أحلامي وبكيت ساعات معها رجل؟

يا إلهي.. ما الذي يحدث معي وبي؟

أهربت أنا من رجلين مرًا بحياتي لأبوح لرجلٍ ثالث بأمرهما؟؟

ما هذا النوع من الرجال؟ وما هي متعته في التلصص على حياة النساء؟ إن كان هو نصابًا يتلذذ بمحاورة النساء والتدخل في حياتهن ربما يجد متعته في ذلك أو ربما ينال منهن المال أو غيره نتيجة ابتزازه لهن حينما يستطيع..

إذًا: فلماذا باح لي أنا بكل ذلك؟

ما الذي يجبره على الاعتراف.. وكان من الممكن أن يخرج نهائيًا من حياتنا جميعًا خلال تكة على الكيبورد فقط وإلغاء كل ما كان !

وما الذي جعلني أتفوَّه بكل ما قلت له !

تبًا للاحتياج تبًا لمرارة الاغتراب.

تبًا لرجل لم يعرف ما تحتاجه أنثاه فيجعلها لاتستكين له وتبحث عن غيره بلا تفكير ليكون هو من تستكين له جوارحها...

يا الله كرهت الرجال جميعهم بل كرهت نفسي .

"ليلى "

مرت شهورعلى زواجي بليلى وتواجدي هنا؛ فقد عملت على أن تستقر حياتي بالنمسا إلى جوارها معظم شهور السنة، حتى إنني وقتما طلبت من الشركة التي أعمل بها والتي أصبح لي فيها اسم ونشاط ومكانة معروفة - حينما طلبت إجازة بدون راتب لمدة سنة وبرغم تعجب الجميع لطلبي هذا واستفسار المقربين من الزملاء عن السبب الأساسي له والذي كان بالطبع سبب أبديته غير الواقعي.. فقد أعلمتهم أنني بصدد عمل خاص وطلبت أمنياتهم ودعواتهم بالتوفيق والنجاح فيه.. وقد كان بالفعل أشبه بعمل أقوم به، كان شغلي الشاغل هو وجودي إلى جوار " ليلى" وتحديدًا تحت قدميها، نعم بالفعل تحت قدميها وطلباتها وأوامرها، قبل أن تطلب يُجاب طلبها.. صرت وكأني مسحور بها ورهن إشارتها وكأني لم أرَ أو أعاشر امرأة قبلها ولا أتمنى أن تكون امرأة بعدها.

وقد كان بالفعل.. كشغلٍ خاص.. كل ما في الأمر أنني بمالي وكامل قواي العقلية اخترت أن أكون موظفًا لإسعاد "ليلى" حُلم المراهقة والشباب.. أمضيت أجمل أيام حياتي الزوجية معها.. نلت منها ومعها ما لم أعرفه أو أتذوقه مع ندى.. كل منهما زوجتي.. ولكن الفارق بينهما كبير.. ندى كانت تجتهد لتسعدني.. تخفي مرارة ما بداخلها كنت أستشعرها وقت لقائنا الحميم بزفراتها التي كانت تلفظها دون أن تدري أنها تحرقني.. تدمر اشتياقي لها.. تدفن كل مشاعر اللهفة والرغبة بداخلي.. كان

إحساسي بها آليًا خاليًا من النبض من الحياة.. ومع ذلك كانت لا تردني إطلاقًا بل وتسعى لإسعادي وإن كان هدفها فقط هو ألا تصبح زوجه فاشلة أو تكون سببًا في هدم ما بيننا من علاقه زوجية فتُغضِب الله في أو تنال من كلمات الأهل ماهي في غنى عنه.

ليلى.. كانت الأنثى الكاملة.. ذات شخصية مميزة في عملها وأهلها ومجتمعها.. وأيضًا في فراشنا .

معها كنت مابين الأمير المدلل والعبد المطيع.. سلبت عقلي. لم تجعل لي مجالًا لأعيد تفكير أو أعدل قرار.. كانت لي مثال الدنيا بزهوها وجمالها وخداعها أحيانًا.. كانت لها من الخبرة الحياتية ما يجعلها تسيطر على قلب وعقل رجل قضى حياته في جمع من مباهج الدنيا والمال لتوفير حياة رغدة له ولمن يختارها ليكمل بها هالته الخاصة والتي لا يشاركه فيه أحد..

ومع ذلك لم تنسَ" ليلى" نفسها بالفعل.. ففي تلك الاشهر كانت تمتلك مايقترب من نصف ما أملك.. بطيب خاطر ورضا تام كنت أهديها وأهب لها ما أملك من عقار أو مال.. على سبيل الهدية.. أو التصالح بسبب مواقف أبسط من أن تكون سببًا لزعلها منِّي.. باتت ليلى كأنثى تأخذ لتعطي.. لم تكن هي من حلمت بها وطرت فرحًا حينما وجدتُها وتمنيتُها بل ووافقتها على جميع شروطها أيضًا .

- فريد.. انت مش هاتنزل مصر تشوف بناتك ولا إيه؟ بقالك هنا 10 شهور ما سافرتش ولا مرة.

-غريبة.. وانتى إيه اللي فكرك ببناتي دلوقتي ؟

- ومين قالك إني نسيتهم..!!

-ربنا يخليك ليَّ يا لولو.. طيب تحبي نحجز ونزل امتى ؟

-نحجز؟ تقصد تحجز انت وتنزل انت يا حبيبي لوحدك.. أنا مش هنزل مصر خالص.

- نعم؟ مش هتنزلي خالص؟؟ ليه إن شاء الله؟ مش المفروض انك اتجوزتي وما ينفعش تقعدي لوحدك من غيري هنا يا ليلى.. يبقى ننزل سوا يا حبيبتي.

- هههههه ماينفعش إيه يا فريد؟ اقعد لوحدي؟ انت نسيت اتفاقنا قبل الجواز ولا إيه ؟؟

فريد.. انت لما جيت هنا لاقتني مع بابا وماما ؟ أنا اتعودت على إني أكون لوحدي يا فريد وكان شرطي عليك انك ماتقيدش حريتي يا حبيبي.

- وإيه اللي يمنع حريتك لو نزلتي معايا اجازتي أو رُحتي معايا في أي مكان أكون فيه يا روحي؟

-خليني احبك زي ما أنا يافريد.. انت روح لبناتك ومراتك وغيب زي ما تحب.. سافر وتعالى هتلاقيني –أنا مراتك مش هاسيبك – بس كمان

ماتخنقنيش يا فري.. عيش حياتك وانا اعيش حياتي بردو وماتخافش هكون مستنياك أي وقت تحب تجيني فيه .

- إحنا متجوزين ياليلى.. مش اصحاب؟

-وهو في أجمل من إننا نكون اصحاب ومتجوزين يا فريد؟

-أنا مش قادر استوعب اللي بتقوليه ياليلى؟ بعد ما لاقيتك وجددتي كل الذكريات والأحلام اللي فاتت؟ طيب انتي كنت أحلامي.. أنا كنت إيه بالنسبة لك ياليلى؟ وبقيت إيه؟

- انت اللي نكشت صندوق الذكريات يافريد، قلّبت الصور كلها وشغلت باك جراوند موسيقى كنت بحن لها ساعات.. إنت عملت ريفرش لحالة البرود اللي اعتدت عليها هنا في النمسا.. لا أهل ولا عرب ولا حد يفكرني باللغة حتى.. ظهرت لي فجأة ومعاك كل ده في وقت كنت مليت فيه أنا من برودة كل شيء.. وانت فاكر كويس انك انت اللي ألحيت عليًا عشان نتجوز وفضلت تطاردني وسيبت كل اللي وراك وقعدت لي هنا..

- ألحييت عليكي؟ وطاردتك؟ عشان بحبك وكنت عاوز نتجوز !

- لأ يا فريد.. خليينا واضحين أكتر.. انت اتجوزتني عشان تحقق رغبة لك قديمة مانستهاش.. مش بس عشان كنت بتحبني واحنا عيال.. وانا كمان قعدت 10 سنين أرملة وغريبة في بلد هي بقت بلدي خلاص.. يعني

كانت شركة متكافئة بينا.. انت اشتريت الحب والرغبة وأنا اشتريت الونس والتغيير.

-لا تقصدي إني أنا اللي اشتريت وانتي اللي بعتي. أنا ما خبيتش ولا منعت عنك حاجة لا حب ولا مشاعر ولا أملاك ولا فلوس.. ماكنتش عاوز مقابل إلا الدفا اللي انتي كمان مفتقداه.

- طيب أنا افتقدته بغربتب وبموت جوزب.. وانت ؟؟؟ ما مراتك وبناتك موجودين.. ليه سيبتهم عشاني؟ زي ما سبتهم النهارده عشاني بكرة هاتسيبنى عشان غيري.

- لو هي دي نظرتك يا لولا ليًا.. يبقى فعلًا لازم ناخد وقت نبعد تاني عن بعض ونشوف كل واحد وتقييمه للتاني إيه ؟

- لأ يا حبيبي مش تقييم ولا حاجة أنا بحبك وانت بتحبني كل واحد بيحب التاني بطريقته . مش مهم نشرحها ونفصصها لبعض.. كفاية ان كل واحد فينا مبسوط ومحقق السعادة اللي محتاجها بلاش نفقد معنى حلو بأننا نقننه ونحسبه نمنطقه بطريقتنا.. سافر ياحبيبي وتعالى وقت ماتحب هاتلاقي حبيبتك وعشيقتك ومراتك مستنياك، ماتخليش الحب يقيدنا خلّي فيه حريتنا أحلى .

*****

كان لزامًا أن ينتهي الحوار عند هذا الحد.. لم تترك لي ثغرة ألتمس منها العذر لما تقول.. فهي لم تكن منفعلة أو غاضبة حتى أقول إنها بدافع عصبيتها أو غضبها أو أو.. بالعكس كانت تتحدث ببرودٍ تام وهدوء أعصاب لم تعلو نبرة صوتها أو ترتجف.. وكأن الحوار هو أغنية تترنم بها أثناء لحظات استجمامها.. ولم تشعر بأن رماد سيجارتها التي كانت تدخنها أشد تماسُكًا من فتات قلب أحمله بين أضلعي لحظة تلقية أسهمها المقننة صوبه مباشرة دون أن تخطىء..

"هــو"

مرت أيام وأيام لا أعلم عددها، ولكني استشعرت ثقلها.. حاولت تخطيها واجتيازها بعدة محاولات فما فلحت معي إلا الصلاة والتسابيح ساعدتني كثيرًا في أن أوازن حياتي مع الصدمات التي أتعرض لها تباعًا.. زواج فريد - أحلام يقظة -كذب نشوى.. ومع كل هذا كان هناك إحساس لم يبارحني، إحساس الراحة واللهفة معًا.. شعوري بالارتياح هو نفسه مرجعه اللهفة لرؤى ذاك الحلم مرة أخرى لهفة لرؤية هذا الكيان الساحر الذي احتواني بطيفه فقط.. حتى إنني صرت أبتسم قبل أن أغمض عينيَّ قبل النوم.. وكأنني على موعد مرتقب وسلوتي الوحيدة بعد لحظات ودخولي إلى عالمه يبدأ بغمض جفنيَّ وكأني أطبقهما على أحلامي حتى أحتويها وأحتضنها برموشي..
يوم واثنان وثلاث ولم أرَه..

فتحت الصورة التي تطابقت إلى حدٍّ كبير مع المواصفات التي رأيتها بالحُلم الذي غيَّر مذاق حياتي من وقتها.. وحادثتها.. وحادثني هو..

- ليه بعدتي وانتي كنتي خلاص قربتي من الطريق؟

-طريق !! طريق إيه؟

أنا كنت عاوزة أقرَّب منك انت.. فريد رماني ونشوى خدعتني.. ماليش غيرك انت.

-نزوة.. فريد بيمر بنزوة فقط ومش هاتطول.

-نزوة ! ده اتجوز اللي بيحبها مش نزوة.

- النزوة حب يا ندى.. بس حب مالوش أساس مرهون بحب أقوى منه ينزعه منه.. وفريد بيحبك انتي وولادك حب أقوى من نزوته دي.

- أنا مش عاوزاه خلاص.. أنا عاوزة أكمل الطريق اللي شفتك فيه ومعاك.

-الطريق قدامك.. بفريد أو من غيره.

-طيب خد بإيدي وورِيهولي.

-انتي اللي هاتروحي لوحدك.. مفتاحه معاكي انتي مش مع غيرك وساعتها هاتلاقيني هناك.. مستنيكي ومش لوحدي كمان.

- مش لوحدك ازاي؟ ومين هايكون معاك؟ وانت مين طيب؟وهاشوفك فين وإمتى وازاي؟

...

كالعادة اختفى من أمامي وأكملت حواري مع نفسي حتى إن ابنتيَّ اعتادتا عليَّ وأنا أتكلم مع نفسي واعتدت أن أراهما تكتمان ضحكتهما ببراءة واضعين كفيهما الضغيرين على فميهما كاتمتين ضحكات وعيونهما تفصح بكل معاني السخرية والدهشة معًا .

لا أعلم من أنت ولا من أي زمن وهل أنت بالفعل موجود أم أنني واهمة.. هل سيأتي يومٌ والحُلم يصبح حقيقة. بل بالفعل أصبحت أحيا الحُلم كواقع.. صرت أراه بلا ملامح محددة في كل ماحولي.. هو من يوقظني للصلاة في وقتها.. هو من يلهمني التسابيح وقتما أكون غاضبة..

هو من أغمض عيني لأراه بوضوح..

هو..هو.

من هو !!

لئن يصبح هناك من يكن عينيك اللتين ترى بهما ونبضك الذي به تحيا.. وروحك التي تعلو وتسمو، تختلف الدنيا من حولك.. أصبحت أرى بعينيه وأحيا بقلبه، ترافقني روحه بكل لحظة ومكان.. علمت الآن أن الحب لا يعرف جنسًا أو عمرًا أو زمانًا.. دين العشق لا مذهب له، لا عمر، لا دين، لا جنسية.. تبهجني تلك الراحة التي أشعر بها والطمأنينة والإحساس بالحب وإن كان دون شريك واضح .

فقط معنى يُطمئِن فؤادي له ويطيب له خاطري.. روح تملأني بهجة ولا يعلم سر الروح إلا الله.. إذًا فلله سلمت أمر قلبي ونفسي وهو بي أعلم .

بَعُدَ المكان واختلف الزمان ومازال يملأ حواسي.. ومازلت لا أدري هل هو العشق؟ وإلى أين يأخذني معه لا أريد أن أعرف ولا أن أعي ولا أن ألمس الأرض..

أحببت حالتي تلك، وددت أن تستمر ولا أفيق منها.. هي نجاتي من واقعي المظلم، هي نجاتى من ذكريات وجدي وفريد.. ممن كُتِب عليَّ أن يُقترَن اسمي بالأول كطليقي والآخر كأب لبناتي لآخر العمر..

ترى.. من ومتى سيكون بجانبي من تقترن به روحي قبل اسمي، متى يأتي من يرافقني دنيا وآخرة؟وهل هو بالفعل موجود أم محض سراب ؟

وهل من حقي أن أحيا كباقي البشر؟

لم يعد يشغلني القادم قدر ماوسعني وأحاطني الحاضر.. تبًا لك ماضٍ كُتِبَ عليَّ فقط لأنه قدري وارتضيته.. فشئت أم أبيت هو " قدري " .

*****

انتهت السنة الدراسية لفرح وهنا.. وجاء وقت سؤالهما عن بابا.. ولما تأخر عن الحضور إليهما هذه السفرة.. كانتا قد اعتادتا على ألا تطول مدة سفره خارج مصر أو بعيدًا عنهما تلك الفترة والتي لم تستشعراها لمزامنتها الدراسة والواجبات والنوم مبكرًا وهكذا.. . الآن بدأت العطلة والتخطيط لقضائها.. . فأين بابا ياماما ؟

- بابا في شغل زي ما قلت لكم.. هياخد أجازة ويجي قريب أن شاء الله.

- كلميه يا ماما خلليه يجي بسرعة هو وحشنا أوي.. قولي له عاوزين نروح البحر سوا مع تيتة وعمتو زي السنة اللي فاتت عاوزين نتفسح كلنا مع بعض .

- حاضر حاضر.. أول ما يتصل بيا بعد ما يخلص الشغل بالليل هاقوله.

- لأ.. خليه يكلمنا احنا كمان لمايتصل بيكي قولي له يكلمنا.

..

..

وضح من لهفة البنتين على أبوهما أنهما بالفعل افتقدتاه.. وشعرتا بغيابه.. أما أنا !!!

فحتى الآن.. لم أشعر إلا بوخز الخيانة منه لي.. وإن كان حقه أن يتزوج.. ولكن من حقي أنا أيضًا أن أرفض تهميشي بحياته أو وضعي في المرتبة التانية من اهتماماته حتى وإن كانت مكانتي بها أهم من ليلى كاستكمال لشكلٍ اجتماعي يحافظ عليه أمام المحيطين فقط..

" أم الرضـا "

ما فعلته نشوى بي.. وحتى الآن لم أستوعب ما حدث منها أو منه.. ما حدث جعلني أنفر تمامًا من الدخول إلى الجروب أو حتى الاقتراب من النت وهو ما كان يربطني بهن جميعًا.. وما يدريني هل من بالجروب يندرجن تحت وصف " هن " أم " هم " !!

هل كل منهن تكتب بحقيقتها؟ بشخصها أم أنها مزورة أيضًا؟

هل ما نتداوله فيما بيننا من صور أو مواقف وحكايات وهي بطبيعة الحال عادية جدًا.. ولكن جزء الخصوصية فيها كبير.. قد يكون بالنسبة لي عاديًا ولغيري مؤلمًا أو العكس.. أفقدني شريف الثقة بكل من تبقى حولي.. حتى إنني قررت أن أدخل لهن وأعرفهن بشخصية نشوى وما احتالت علينا به.. ولكني تذكرت أن حوارنا قبلها كان على اختفائها الغامض وانسحابها من كل حواراتنا بل من الجروب بأكمله..

ولكن من يدري ألا يجوز أن يكون لازال يقوم بنفس الدور الذي قام به معي كنشوى مع غيري؟ وربما يكون صار أكبر مما صار.. فأنا إن كنت قد تماديت في الحوار أو الثقة فقد كنت أثق بنشوى لا بشريف ربما يكون تعدى دوره الكلام مع إحدانا وبدأ في استقطابها تجاهه وهو يعلم جيدًا حاجة كل منا ومواطن الضعف عندها أو ربما ابتز إحدانا بالأموال حتى لا يفصح عن سر ما أفضى به إليه كنشوى؟ أسئلة كثيرة واستفسارات دارت بذهني وزادت من توتري..

توجهت إلى اللابتوب ولم أجد أونلاين غير ماريان، وقد كنت افتقدت حديثها المشاكس وربما كنت أحتاج بالفعل لمن يخرجني من دوامة التفكير تلك.. ولكن ما حدث بيننا من حوار كان مفاجئًا لي..

فما إن فتحت معها الحوار وتساءلت عن أحوالها وجديدها وكذا هي.. فاجأتني ماريان بفكرة من أفكارها الغريبة وعباراتها الحرة التي لاتربطها أي قيود لفظًا أو معنى وسألتني مباشرة عن تصور جال بخاطرها.. ماذا لو أصبح العالم ليوم واحد بلا قوانين ولا أديان ولا عادات ولا تقاليد ولا أسماء ولا جنسيات.. ماذا لو استيقظنا يومًا على أن نصبح جميعًا بلا فوارق زمنية أو عقائدية.. ماذا لو أُنتزعَ الخوف والعيب والحرام من قواميس اللغة والعرف.. ما هو الفعل أو الأمنية التي ستكون أول شيء تفعلينه؟

فكرت مليًا بالأمر وذهب عقلي وخيالي يتقدمه إلى ما بعد الخيال بمراحل.. حاولت أن أتجرد من تركيبتي النفسية والعقلية.. أتحول عما نشأت عليه وما اضطررت لتقبُّله.. في السابق ربما تمنيت أن تأتي لي مثل هذه الفرصة لكنت فعلت وفعلت وفعلت.. لكن الآن ماذا لو حدث بالفعل؟؟ حرت كثيرًا في مجرد التفكير أو التخيل.. لم أعرف ردًا معينًا.. فقط وجدتني أحن لطفولة مدلَّلة ورعاية خاصة.. وعلاقة حب برينة مع ابن الجيران كلها كانت أحلام مراهقة لا تعدو أحلام برينة لاتوجد بها أطماع أو شهوات.. كنت سألتحق بالجامعة وأدرس الموسيقى والشعر واللغة سأنهي دراستي بتفوق.. سوف أكون أول امرأة تجتاز مراحل الجامعة كلها في شهور وربما أيام.. سأدرس الرقص والموسيقى بشكل مختلف.. سأحترف الرقص الإيقاعي والتعبيري وأجعل من اسم"

ندى أبو الفتوح " علامة لفن جديد يختص بالنساء فقط سأنسج لوحات بديعة من الموسيقى والشعر والرقص كلها تهدف إلى الحرية من كل شيء من كل قيد الحرية متجسدة ومُلحنة ومؤداة.. سأختار فتى أحلامي وأحيا معه بقمة جبل أو جزيرة نائية أو ربما صحراء شاسعة وأنسج أعذب قصة حب نلهو ونبكي ونغدو ونروح سويًا.. سأحيا يومًا بكل أيامي لن يقيدني جنسي، لن أراعي كوني أنثى لها محرمات وممنوعات سأفعل كل ما أراه يحلو لي، لن أنام إلا إذا فقدت توازني وما عدت أستطيع الوقوف أو فتح عينيَّ، سألتهم اللحظات ولا أفلتها سأحطِّم كل قيدٍ يمنعني من تحقيق رغباتي سأكون امرأة قوية بل ذات جبروت يطغى على كل الرجال ويحطِّم غرور وسطوة أيٍّ منهم يعترض تحقيق ما تمنيته .

انتبهت لنفسي وما في ملء جعبتها وفاض منها لمجرد فكرة خيالية طرحتها ماريان عليَّ وحاولت أن أبدو أكثر فطنة ودهاء منها فقلبت الدفة تجاهها بصيغة مرحة وساخرة.. قائلة لها..

-قولى لي انتي كنت هاتعملي ايه؟ ولا مافيش حاجة ماعملتهاش لسه !!

لم تخجل إطلاقًا عهدي بها أن تكاشف بما لديها دون تحفُّظ.. كان ردها على سؤال رمته كشرك لي فوقعت هي فيه.. قالت بلا تفكير ستسقط من وزنها بعض الكيلوات.. سترتدي من الملابس مايظهر أكثر مما يستر.. ستجعل كل الشباب والرجال يتمنون أن يهنَئوون لحظة بضمتها ولكن هي لن تكون سوى لرجل مثل"حسين ".. دكتورها

بالجامعة وقت أن كانت طالبة وأول وآخر رجل شعرت بنبض الحب له.. هو من يكبرها بسنوات نصف عمرها تقريبًا أحبته وكان مثالًا لرجلٍ تمنت أن يتزوجها.. قالت لو أن الزمن توقف ولا دين ولا عرف ولا قانون.. فورًا كنت تزوجت أو حتى عشت معه بلا أوراق ولا ضمانات سوى وجوده معي هو أكبر ضمان لسعادتي ولن أعبأ بأولاده أو زوجته كنت سأعيش أجمل لحظاتي معه، كنت سأجتر بداخلي عطر أنفاسه لتنعشني باقي عمري من حالات الاختناق التي أتعرض لها بسبب نقص وانعدام نسمات الحنان والرغبة.. من خصلات شعره الأبيض سأغزل شال يحتويني ويقيني صقيع المشاعر في شتاء قارص أعيشه الآن بلاه.. كنت سأجعل صدره صومعتي أتلو فيها صلواتي وترانيم محبتي.. أقدس له وجوده بحياتي لتلك اللحظات.. أحيا بفتات لقائه حُلمًا.. أقدم نفسي له قربانًا لتلك اللحظات.

-ايه ده يا ماريان حيلك حيلك.. ده حرام. انتي مسيحية وهو مسلم.. هو متجوز وعنده عيال كمان ضحكت وضحكت وضحكت.. وقالت :

- حرام إيه بس يا ندى.. حرام عليكي انتي يا شيخة. انتي نسيتي مش قلنا ليوم بس لا دين ولا زمن ولا عيب.. حتى الحلم ياناس؟؟ حتى الحلم هايبقى متراقب !!

لحظتها فقط عذرتها وتعاطفت معها.. مسكينة الأنثى عندما تكتم رغباتها ولا تستطيع البوح بها.. خشية العادات والتقاليد.. تخيلت لو أن

هذه للحظات أتيحت لشذا لكانت حلقت في السماء باحثة عن أراضي أحمد لتهبط إليها.. ولشريف لأن يظهر بصورته وربما.. بحث عنّي أيضًا .

الأحلام.. ملاذ كل من لا حيلة له.

اااااه رأسي كاد ينفجر لم يعد لي ملجأ بعد الله.. سوى أن أكتم ما أنا فيه عن الكل إلا.. الورق .

عاودت ما كنت اعتدته في مراهقتي وصباي وقت كنا بالخليج.. وقت أن كنت وحيدة بين أهلي وصديقاتي.. كانت رسائلي لعهد هي سلوتي.. عدت من جديد لسلوتي وملاذي.. بالطبع ليست عهد.. ولكنها لـ" الورق " .

أصبحت أقضي الساعات ولا أعلم كم منها مضى ما بين الأوراق والموسيقى.. استحضرت كل ما مرَّ بي من الطفولة في العباسية والمراهقة خلال سفرنا بالخليج و حتى ما أشعر به من صدمات وارتطام الحُلم بالواقع والعالم الافتراضي الذي تهت به أيام وشهور وبين عالمي الجديد الذي أحياه.. ظللت أكتب وأشرد بذاكرتي وأعود لأكتب حتى داهمني الوقت ذات مرة حتى انتبهت لصوت أذان الفجر وتبعه صوت الكروان..

الكروان، أَحَب أصوات الطبيعة لدى.. تسبيحته التي يسطو بها على فؤادي - الملك لك لك لك - أصابتني برجفة وسعادة وكأن شيئًا ما يحركني من مكاني يهمس لي أن أرافقه إلى هناك.. إلى أين!! مكان ما قابلت أم الرضا. ووجدت نفسي هناك.. بل ومعها أيضًا .

- اتاخرتي عليًا أوي يا ندى .

- كنتى مستنياني؟ عارفه إني جاية؟

- مش جايز انتي اللي مستنياني؟ مستنية حل لعلامات الاستفهام اللي عندك دي؟

-أيوة يا راضية أنا فعلًا مستنياكي، مستنية أي حد يفهمني اللي بيحصلى ده.. مين اللي بيجيللى في كل حلم ده؟ مين ياراضية؟ مين اللي حاسة انه جانبي أوي وكلامه كأنه من جوايا ومش عارفة اشوفه ولا احدد ملامحه؟ انتي عارفه قولى لي مين مين يا راضية ؟

-فاكره مجدي يا ندى ؟؟

- مجدي !!!

استوقفتني مفاجأة راضية واستفهامها عن الاسم الذي جعلني أحملق بها بتعجب.. اقشعرَّ بدني جميعه لذِكرها تلك الجملة " فاكرة مجدي ياندى " !!

وكأن عربة انزلقت من أعلى منحدر بكامل سرعتها، استحضرت ذاكرتي لسنوات مضت وتعجبت من تذكري لموقف وحيد جمعني بهذا الاسم وهذا الشخص - مجدي- لم أنسَه ولكن لم يأتِ ما يجعلني أتذكره يوم ما.. فقد كان منذ أكثر من ثلاثة عشر عامًا.. وتحديدًا في العطلة الوحيدة التي بها زرنا خالاتي بالأرياف لحضور عُرس ابنة خالي.. كنت

في الخامسة عشر من عمري تقريبًا.. وكما كان ملحوظًا للجميع أن هيأتي وملامح الأنوثة التي بدت عليَّ مبكرًا كانت تجعل من يراني يتوهم سنًا أكبر لي من عمري الحقيقي..

كان الجميع مشغولين بالإعداد لحفل عرس ابنة خالي في مساء ذلك اليوم.. فكان هناك من يجهز الطعام والحلوى بكميات كبيرة وبمساعدة نساء القرية اللاتى كنّ يتبادلن الأغنيات والغمزات والضحكات للنيل من استفزاز أم العروسة وابنتها بشكل ألف عليه أهل القرى في مثل هذه المناسبات.. لينشرن حالة من البهجة والضحك في هذا اليوم.. وبين أطفال من كل الأعمار تحوم وتمرح هنا وهناك.. كنت كعادتي أستقطب أماكن الهدوء وألجأ إليها.. والمنزل في ذاك اليوم لم يكن به مكان هادىء الصخب والفرحة والحركة في كل أرجائه.. صعدت فوق سطوح المنزل أبحث عن الهدوء لمتابعة لحظات الغروب التي كانت من أمتع اللحظات التي رسخت بالذاكرة عن ذكريات الريف فالشروق والغروب حالتان نمر بهما جميعًا كل يوم والقليل منا من يتدبر بهما وأنا عاشقة لقُرص الشمس في كلتا الحالتين.. امتلأ السطوح بعشش الدواجن وبعض الزراعات والنباتات البسيطة وأعواد الذرة والحطب الذي كان يُستخدَم كوقود لطهي الطعام أو الخبيز في أفران ومواقد خاصة بذلك..

جلست فوق أعلى مكانٍ في السطوح أترقب أسراب الحمام وهي ذاهبة لأعشاشها قبيل الظلام.. ومابين بدايات ظهور النجوم وأسراب الحمام ونسمة الهواء الصافية، أغمضت عيني لحظات.. وعندما فتحتها -

وجدته أمامي - على بُعدٍ لا يزيد عن طول ذراع واحد منِّي.. التفتُّ حولي من كل اتجاه لم أجد سواه.. كانت نظراته تخيفيني فهو جار وصديق لأبناء خالي أعرفه من وصفهم له وعن أخلاقه وعن صوته الجميل حين يغني في مناسبة ما أو سمر يقيمونه..

- ايه ده؟ مجدي! انت جيت هنا ليه؟ وعاوز ايه؟

- ماتخافيش منِّي يا ندى.. أنا ماعرفش اللي جرأني وخلاني انط من سطوح بيتنا لما شفتك هنا.

- لو سمحت اتفضل امشي من هنا بسرعة قبل ما اصرَّخ والناس تتلم علينا دلوقتي.

- ندى أنا بحبك أوي.. من ساعة ماشُفتك وانتي مش مخلياني اشوف غيرك حتى وانتي مش هنا.. أنا قربت اخلَص كلية وممكن اتقدم لباباكي واخطبك ونتجوز.

- إيه اللي بتقوله ده يا مجدي.. لو سمحت انزل فورا من هنا أو وسّع لي السكة عاوزة امشي .

كان يقترب مني بحذر وعينه الحائرة اللاهثة الجائعة تدور في فلك ملامحي ما بين عينيَّ وشفتيَّ ورقبتي في حيرة وتوتر.. اقترب مني وأنا مادَّة ذراعيَّ أمامي في وضع يدفعه عني إذا زاد اقترابه.. كنت أرتجف ولكني لم أستطع الحراك.. فقد كنت بمكان مرتفع جدًا وبلا أسوار كل ما فعلته أنني سقطت على ظهري رافعة يديَّ إلى السماء في وضعٍ يحول بيني

وبينه.. حتى اقتربت أنفاسه منّي وأنا باكية وغير قادرة على الحراك أو حتى الصراخ فضخامة بنيته بالنسبة لبنيتي الرقيقة والضعيفة وقتها وضيق المكان وارتفاعه حال بيني وبين الهروب منه.. وإذا به فجأة تتحول نظرة الاشتهاء التي كانت بعينه إلى نظرة وجوم وترقُّب وكأنه شُلَّ أو فقدَ القدرة على التنفس.. انتهزت تلك اللحظات ومررت من تحت ذراعيه مسرعة ألتهم الخطوات حتى وصلت أول غرفة قابلتني في المنزل دخلتها واستغرقت في بكاء هستيري.. ولحُسن حظي لا أعلم أم ماذا.. لم يلاحظني أحد من هرج ومرج المكان فقد كان الوقت قد دخل في الليل وحان وقت الاحتفال بالعُرس .

- ندى.. سرحتي في إيه؟ افتكرتي؟

- انتي عرفتى منين؟

-احكي لي اللي حصل بعدها ؟

-هو انتي عارفة اللي حصل ؟

- إحكي يا ندى.. إيه اللي حصل بعدها؟

- بعدها مجدي كتب لي جواب.. وهو بيسلم علينا واحنا مسافرين بعد الفرح بيومين خباه في جيبه واداه لعادل اخويا الصغير جوه مجلة ميكي وتعمد يلفت انتباهي ويعلّي صوته وهو بيسلم على عادل..

" ابقى اقراها وانت في السكة ياعدول.. اتسلى وافتكرني لما توصل بالسلامة"

كنت لاحظت أنا الورقة اللي حطها جوه المجلة وعرفت أنها بالتأكيد لي.. مع إني تعمدت ابين له جداااا إني مش عاوزة اشوف وشه وده كان حقيقي.

-ها ولاقيتي إيه في الورقة دي يا ندى.. فاكرة ؟

-اه طبعا..

" عزيزتى ندى " :

مش عارف إيه اللي حصل !!.. انتي مين وازاي كده؟ كل اللي عاوزك تعرفيه إني فعلًا بحبك.. وكان نفسي جدًا اتقدم لباباكي واخطبك لكن الظاهر انك مش مكتوبة لبنى آدميين يا ندى.. ماتستغربيش اللي شفته أنا محدش هايقوله لك غيري.. لما شفتك قاعدة وسرحانه في السما على السطوح.. قلت هي دي الفرصة الوحيدة اللي هاقدر اكلمك فيها.. وماكنتش ناوي أقرب منك خالص كان نفسي اتكلم معاكي وبس.. أسمع صوتك وابص في عينيك واملّي عيني منك وبس.. لكن أنا لاقيت قدامي فجأة ملاك.. ملاك بجد مغمض عينيه وسارح في دنيا تانية.. نسمه الهوا والغروب ووشك الجميل خلاني ما احسش أنا فين وهاعمل إيه.. وبمجرد ما قربت منك وانتي مديتى إيديك تبعديني عنك أنا لاقيت نظري اتسحب.. ماشُفتش قدامي غير بياض.. كأن في لوح من ازاز

وضباب أصبح بيني وبينك قوي لدرجة إني حسيت إني حاجة بتدفعني لورا.. مالقتش أي تفسير للي شفته وماحسيتش بالدنيا إلا بعد ما انتبهت على صوت الزغاريد تحت البيت.. اتسحبت مكان ماجيت ونمت وكأني في كابوس مش عارف ولا حقيقة..

ندى.. أنا آسف.. أنا آسف إني قربت من ملاك زيك.. انتي مكانك مش وسطينا.. ربنا يحفظك / وسامحيني "

- وعرفتي دلوقتي مين يا ندى اللي بتشوفيه في الحلم ؟ مين اللي قالك انه مستنيكي على الطريق؟

- راضية.. أنا خلاص مابقتش عارفة حاجة.. انتي مين وهو مين وعرفتي حكاية مجدي ازاي؟ وعرفتي اللي بفكر فيه ازاي؟ ولو هو مش حقيقة يبقى انتي كمان مش حقيقة!!

- إهدي بس.. أصلك فعلك يا ندى.. وانتي أفعالك كلها طيبة حتى لما بتغضبي بتكتمي غضبك ما بتزعليش حد.. فعلك طيب وأخلاقك طيبة وأصلك من روح طيبة.. وروحك بتحن لأصلها دايمًا ولا يمكن اللي أصله طيب يقع في معصية ولا يقدر عليه شيطان إنس أو جن..

- الروح الطيبة دي ازاي تتوجد في وسط ناس خداعة ومنافقة وخاينة كده؟ إزاي تتعامل مع ناس كل همهم دنيا وبس! هو ممكن نبقى ملايكة في زمن مليان شياطين ؟

- الوردة أصلها بيكون فين؟ جدرها يعني فين ؟

- في الأرض.. في الطين.

- تمااااام الواحد لما بيشوف الوردة وتسر نظره بشكلها وألوانها و ريحتها بيبقى عاوز يقطفها وياخدها من مكانها عشان يستمتع بيها هو لوحده ما بيفكرش أن أهم جزء منها موجود في الطين.. جذورها اللي سبب وجودها وجمالها في الطين ومحدش بيشوف الطين ده لأنه مخفي مع إنه سر حياتها.. يعني لو اتخلعت منه تموت.. الروح بقى هي المسئولة عن الجمال والبهاء ده محدش بيشوفها بس يحس بيها الكل. لو صحت الروح يصح البدن الوش ينور والقلب يرق.. الورده تبقى صحيحة وبهية لما تربتها وطينتها تكون عفية وسليمة وتربة الإنسان اللي منها اتخلق التراب.. الطين.. لما يصح حياتنا كلها تصح.. نقي روحك يهدى بالك ويرتاح فؤادك.

"لقـــاء"

لم يكن أمامي اختيار لاستيعاب ما قالت ليلى سوى أن أقطع وهمي أو ما أسميتُه حُلمي باستقراري معها إلا بالعودة إلى بنتيَّ.. بعد أن حاولت أن أغيّر مسار تفكير ليلى المنفتح على عادات وحياوات مختلفة هي ما راقتها في بُعدِها عن مصر وتأقلمت وانصهرت قلبًا وقالبًا في خارجها.. ربما هي كانت أشجع منّي فأباحت ليس لي فقط كزوجها بل للكون بأكمله أنها وهي - امرأة - عشقت الحرية وباعت من أجلها كل ما يقيدها أو يحرمها ولو جزءًا منها حتى إنها عندما تزوجتها كان بشروطها هي على ألا أنتقص من حريتها شيئًا وأنا قبلت.. إذًا عليَّ أن أقبل أن تكون لي -عشيقة - بمسمى وحقوق الزوجة وعليَّ أيضًا أن أتنازل عن بعض حقوق الزوج فيما لا ينفرها منّي.. لم تتوافر لدي الشجاعة لأطلقها فأعترف أني صرت عبدًا لها مأسورًا بعشقها.. وأنها خاطبت فيَّ الجانب الخفي لفريد.. من يعشق المغامرة والنساء ويتلذذ بضعفه لها، دور لا أحب أن ألعبه في الواقع ولكني أستمتع به في الخفاء وبشكل مباح .

ودعتها وانطلقت في إجازة إلى بنتيَّ وأمهما..

وصلت إلى القاهرة دون موعد.. وعلى غفلة طرقت باب منزلي متلهفًا لرؤية فرح وهنا وندى.. فقد كنت كما طفل يحبو ينظر للأعلى يترقب يدًا تأخذ بيده ليقف على قدميه.. كنت أتلهف لمدَّة يدهم لي.. لضمة

بناتي إلى صدري.. لاحتضان زوجتي ندى.. بل الأكثر من حضنها كنت أتلهف لئن أقبّل يديها وجبينها معتذرًا عمَّا بدرَ منّي أن أرتمي على صدرها باكيًا صارخًا متوجعًا من ألم الفقد الذي عانيته وجنون الشهوة والامتلاك الذي كفَّ بصرى عنها.. . طرقت الباب مرارًا.. حتى سمعت صوت فرح من خلفه..

- مين ؟

- أنا بابا يافرح، افتحي يا فروحة.

- باباااااااا.. بابا جه ياهنا.. بابا جه يا ماما.

يا مااااااااااماااااا.

-حبيبة قلب بابا فروحة.. تعالي يا هنا تعالوا يا حبايبي وحشتوني وحشتوني.

- انت كمان وحشتنا أوي يا بابا.. انت ليه اتأخرت أوي كده المره دي.. احنا كنا بنعيط علشانك من غير ما ماما تشوفنا.

- يا حبايبي.. انتوا كمان وحشتوا بابا أووووي وانا جيت اهو عشانكم .هي ماما فين ؟؟ نايمة؟

- لأ.. ماما كل يوم بالليل تدخل أوضتها وتقفل عليها لحد ما يجي معاد العشا والكارتون يكون خلص في التلفزيون ونتعشى سوا كلنا وننام.

فتحت إحدى حقائبي وأخرجت لهما بعض الهدايا وطلبت منهما أن تفتحاها وأن تلعبا في هدوء وأذهب أنا لرؤية أمهما ربما تكون نائمة.. وعلى استحياء وهمسًا اقتربت من الباب وفتحته برفق وبالجمال ما رأيت.. لم أجد تعبيرًا يوصف ما شاهدته..

كانت ندى تفترش سجادة الصلاة المخملية المحلاة بتظريز مميز بالألوان الخضراء والزرقاء.. ترتدي إسدالاً للصلاة أبيض اللون بدت فيه كعروسة ليلة زفافها.. ممسكة بيدها سبحة كريستال بلون البنفسج حباتها تنساب من بين أصابعها بهدوء ورقة كما لو كانت تعزف مقطوعة روحية على آله غير مرئية نغماتها استشعرتها دون أن أسمعها.. رائحة الزنبق تملأ المكان.. أضواءالشموع لم يفسدها ضوء الأباجورة التي ترتكز على المصحف الذي تقرأ به..

".. ومن يتقِ الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب "

صدق الله العظيم .

- مين؟ فريد !!

- ندى

مقتربا منها فاتحًا ذراعيً مقبلًا عليها لأضمها بلهفة وندم الأيام السابقة..

- حمدلله على السلامة يا فريد.

مبتعدة عني تمنعني بيديها من بعيد مشيرة لي بألا أقترب منها .

- إيه يا ندى مش عاوزاني اسلم عليكي.. أنا لسه جوزك انتي نسيتي ولا إيه ؟

- لأ يافريد مانسيتش ولا حاجة.. بس اصلي متفاجأة من مجيك دلوقتي وعلى غفلة كده.. ليلى معاك؟

-لأ يا ندى.. أنا لوحدي. وحشتونى مفتقدتكم جدًا.. وحشتوني ومش هاقدر استغنى عنكم تاني " مقتربًا منها أكثر "

-من فضلك يا فريد.. ماتقربش منّي مش هاقدر اتكلم معاك دلوقتي .

- عارف انك مش هاتسامحيني بسهولة.. بس عاوزك تصدقي إني فعلًا ندمان على الأيام اللي راحت دي.

- ياريت تسيبني شوية من غير ما نتكلم في حاجة.. اتفضل انت ارتاح في أوضتك هنا.. وانا بكرة الصبح هانقل حاجتي مع البنات الكام يوم دول.. معلش سامحني مش هاقدر اتكلم معاك الليلة دي أكتر من كده، تصبح على خير.

*****

وصول فريد المفاجيء للعجب لم يهزني ولم يكن صادمًا بالنسبة لي.. أصبح حبه لي كما الإيمان لمن آمن بعقيدة ما.. يزداد وينقص.. كان حبه لي إن لم يزداد فهو ينقص.. لم يثبت على حال.. وها أنا أعترف.. أني قد كفرت بحبه.. لم يعد مكان لرجل بداخلي.. جميع ما أستشعره من

خفقات ونبضات وحالة عشق أرتاح إليها لم تكن مرتبطة به أو بغيره من البشر.. كان كل مايأتيني ملاصقًا لتلك الأحاسيس ليس أكثر من خيال أو سراب أو ملامح مطموسة غير مرئية لكني أستشعرها بروحي فقط.. ربما صدق مجدي فيما قصه عليَّ سابقا !! هل كُتِبَ عليَّ أن أعشق خيال؟ سراب؟

ولكن كلماته لم تكن كاملة التحقق في حياتي.. فها أنا قد تزوجت وأنجبت كسائر البشر.. بيد أنني لازلت لا أجد سلامي النفسي وراحتي سوى في لحظات خلوتي.. إليه وحده ألوذ وأبكي وينشرح فؤادي.. إليه وحده أبوح.. فأنت من اذوب بعشقه أنت من أحببته حبًا لا يعرفه بشر.. حب المليك للمقتدر.. ضعفي وقوتى بيديك.. لا تحتاج للبوح بسِرِي إليك.. في محرابك بكيت.. لضآلتي تحت عرشك أتيت.. من نهر عرشك توضأت.. صلاة في قربك لا تنتهي تمنيت.. ذنوبي وإن كثرت لرحمتك سعيت.. فهل تقبلني عبدًا لذاتك رغبت..

*****

منذ عودة فريد وأنا أقضي معظم ساعات اليوم بغرفتي.. بخلوة أسستها لنفسي، لم أعد أحتاج من البيت ولا من الدنيا سوى تلك المساحة المحدودة بأمتار متسعة بآفاق تعدت السموات السبع.. خلوتي والتي عرفت أنها مفتاح سعادتي وما يمتلىء بها الفراغ الداخلي الذي عانيته طيلة أعوام سابقة.. هي من أكون معه بكياني وعقلي وروحي..

نعم معه.. فقد زارني مرة أخرى بعد طول غياب كما وعدتني أم الرضا.. وكما بلغني من قبل أنه سيكون منتظرني عند الطريق الذي أريده.

(إنتي اللي هاتروحي لوحدك.. مفتاحه معاكي انتي مش مع غيرك وساعتها هاتلاقيني هناك.. مستنيكي ومش لوحدي كمان).

تنفست عبير حضوره، كنت أتوق شغفًا للقائه.. أنار لي الطريق وتركني أقتفي أثره، هذه المرة مدَّ لي يده كما فعل من قبل ولم أكن ألحق به.. اقتربت بيننا المسافة أكثر تطلعت إلى وجهه محدقة به علني أفسر ملامحه.. اقترب منّي باسما :

-أعلم أنك أرهقتِ نفسك لمعرفتي، ولكني أريدكِ أن ترهقيها أكثر وأكثر لتصلي ولن تصلي إلا إذا بالفعل كنت تريدين.

- بالتأكيد أنا عاوزة اوصل لك.. أنا حاسة ان خلاصي من عذابي مع نفسي هو انت طريقه .

- عليكِ بالتفكر.. بالتسامح.. بالحب لجميع مخلوقاته حتى من بغضتي.

-انا مابكرهش حد، ما أسأتش لحد دايمًا الإساءة منهم مش منّي.

-لا تذهبي خلف السراب فكل من وصل إليه اشتاق للماء، والماء بين يديك.. انهلي منه واروي ظمأك ومن حولك، ساعدي نفسك وغيرك، أسعدي نفسك وأسعدي غيرك .

استيقظت من نومي هذه المرة وأنا على يقين من أنه هو بالفعل.. هو من كان جدارًا حافظًا لي كما روى لي مجدي من سنوات.. وهو من جعلني أذهب إلى السيدة نفيسة لألقى راضية.. هو من كان يملأ غرفتي بعطر أحببته وقتما أختنق من هوى نفسي وضجرها.. هو ياراضية عرفته ولا أريد أكثر.

هرعت إلى سيارتي، أدرتها مسرعة جدًا إلى السيدة نفيسة.. أبحث عنها عن أم الرضا.. لم أجدها.

ذهبت إلى خادمة المقام وهي من تقيم إلى جواره على بُعدِ أمتارٍ ولا تبرح مكانها كلما ذهبت رأيتها وأولادها وهي أيضًا كانت تسرع الخطى إليَّ لتسلم عليَّ أو تدعو لي إثر إعطائها ما يجود به الله عليها من خلالي من مالٍ أو ماشابه.

بعد أن صليت وجلست أسبّح وأدعو.. طال الوقت وأذن للفرض التالي بالمسجد ولم تأتِ راضية.. ساورني القلق وسألتها :

- هي راضية ماجتش النهارده يا أم السعد؟

-" مبتسمة " راضية مين يا ضنايا ؟

-أم الرضا.. مالك يا ام السعد؟

أم الرضا اللي كنت بقعد معاها كل ما اجي هنا.

-اسم الله عليكي يا حبيبتي.. انتي من زمان بتيجي هنا لوحدك تصلي وتسبّحي وتديني اللي فيه القسمة وتروحي.

..

..

دارت الدنيا بي وكأن الجنون مسَّني فلم أعد أدري ماذا أقول أو أهذي.. لم أدرِ كيف علا صوتي ونهضت من مكاني ألتفت يمينًا ويسارًا منادية.. رااااضية.. أم الرضا.. راضية وأم السعد تضرب كفًّا بكف محوقلة ومستغفرة مقتربة منّي تحتضني وتكبّر:

-صلي عالنبي ياست ندى صلى عالنبي.. ياستنا نفيسة رديها لعقلها ياستنا.. دي كانت زي الفل لا حول الله يارب.

خرجتُ مسرعة الخطى من المسجد لا أرى أمامي من الدموع، ورأسي لم أعد أشعر بها دوَّار تملكني فلم أكن أعلم أين أنا ولا إلى أين أنا ذاهبة .

" أيامي "

صار لي بمصر أكثر من شهر، لم أبرح بيتي ولا ابنتيَّ سوى لساعاتٍ قلائل أقضيها مع أمي وأخواتي، وبصحبة بنتيَّ أيضًا.. لن أكون مبالغًا إن قلت إني لم أجلس مع ندى سوى مرات تُعَد على أصابع اليد الواحدة لتناول وجبات الطعام كأسرة واحدة.. كنت أشتاط غضبًا وأحاول ألا أبديه لها خاصة أني بداخلي فوران لبركان لم يُخمَد إثر ما صار من حوار وموقف ليلى منِّي قبيل عودتي إلى مصر، تمنيت أن تأخذني ندى بحضنها لأبكي كطفلها الصغير طمعًا في حنوها عليَّ، لم أكن أريد منها حق الزوج لم أشتهِ منها هذه المرة ما كنت أريده سابقًا كزوج، كأن ليلى وشمت على قلبي وجسدي بألا أعاشر أي امرأة غيرها حتى وإن كانت زوجتي الأولى.. العجيب أني لم أرَ منها غضبًا أو إساءة.. لم أرَها عابسة ولكنها بابتسامة مصطنعة غير متكلفه كانت تلقاني، وبرقة وبراءة كانت تبتعد عني حتى لا أختلي بها مطلقًا.. وأنا للحق كنت أستحي منها كلما رقت في إظهار مشاعر الغضب بطريقة مهذبة وغير جارحة لي كلما استشعرت نفسي قليلًا وضئيلًا المكانة والحجم إلى جوارها، لا أدري ما سر النورانية التي كست وجهها وحالها وهي بطبعها رقيقة الملامح لكنها كانت بالفعل تشع نورًا.. الأعجب أنني كنت سعيدًا بها.. كنت أنظر إليها نظرة عاشق ولهان محب غيور.. مشتاق خجول منكسر.. لا أعرف أحوال كثيرة ومتضاربه ولكن في مجملها لا تدينها..

حتى جاء يوم واستيقظت على هاتفي يدق برقمها الخاص.. فلم أجِب على الاتصال ظنًا منِّي أنها بالغرفة المجاورة ولا تريد أن تحادثني. سعدت وقمت مسرعًا متوجهًا إلى غرفة البنات التي تقيم بها معهما.. وجدتهما نائمتين وهي غير موجودة.. فتحت الموبايل وجدت منها رسالة تقول إنها أخذت سيارتي لتقضي مشوارًا قريبًا ولن تغيب .

لم أعر الموضوع اهتمامًا أكثر من اللازم: فأنا أعرف ندى أين ستذهب فلن تكون في مكان أبعد من زيارة عمتها " أمي ".

دقَّ هاتفي برقمها مرة أخرى.. فسارعت بالرد :

- ندى انتي فين يا حبيبتي؟

كان المتحدث صوت لرجل.. أوقف الكلام بحلقي لمجرد قوله : " ألو "

- ألو.. انت مين؟ وبتتكلم من تليفون ندى ليه؟ ندى جرى لها حاجة !

....

....

لا أعرف كم مضى من الدقائق حتى وصلت إلى عنوان المستشفى الذي أبلغني به المتصل من دقائق.. فقد كان طبيب الإسعاف الذي رافق ندى مع سيارة الإسعاف إلى مستشفى القصر العيني.. كان يحاول أن يهدىء من روعي بكلمات مطمئنة قبل أن يخبرني بأنها كانت تقود مسرعة بطريق ضيق محاط بأشجارعجوز صوب المقابر بجوار ضريح

السيدة نفيسة ولولا عناية الله -وطيبة الست دي - لكنت أستلم جثمانها الآن .

فمن الواضح أن سرعتها وعدم تركيزها أديا إلى اختلال عجلة القيادة بين يديها مما أدى إلى اصطدامها بشجرة عجوز وتخطيها إلى الانحراف داخل المقابر التي تظهر على جانب الطريق .

- طمّني يا دكتور.. مراتي عاملة ايه؟ إصابتها خطيرة؟ هاتعيش يادكتور؟ أنا عاوز اشوفها أرجوك عاوز اشوفها .

- إحمد ربنا يا أستاذ.. المدام بخير ربنا نجّاها من موت محقق.. لولا الايرباج كان القفص الصدري تهتك بأكمله.. هي شوية رضوض وشرخ في الحوض هنعمل الإشاعات والسونار ونحدد بناء عليه حالتها .

- طيب أنا عاوز اشوفها.

-هي حاليًا فاقدة الوعي طبعًا.. ما تستهونش بالحادثة. الحمدلله أنها بخير لسه.

أه يا ندى.. فديتك بعمري يا أم بناتي.. ذهب عقلي لاستفسارات سريعة، ما الذي أتى بها إلى هنا؟ هل كانت تزور أحدًا بالمقابر؟ ومن لنا بالمقابر هنا؟ ولِمَ لم تخبرني في رسالتها بمكانها؟ ليس مهمًا الآن أي شيء سوى أن تكون بخير.. اتصلت بأمي وما كانت إلا ساعة وكان بجواري هي وأخواتي البنات باكيات متعجبات لما حدث لها.. ومكثنا جميعًا ندعو الله أن يترفق بها وبنا ويشفيها .

عدت إلى المنزل وتركت أمي معها بالمستشفى.. بعد أن تناولت فرح وهنا عشاءهما ونامتا.. نظرت إلى غرفه ندى أو خلوتها كما أحبت أن تسميها هي.. ودخلتها ألتمس فيها رائحتها، وأتجول بين أغراضها البسيطة محتضنًا إسدال الصلاة الخاص بها فوقع بصري على دفترها الخاص وما كانت تدوّن به مذكراتها.. أو أيامها.. كما كتبت على غلافها - " أيامي" - وتصفحتها بفضول.. ولم أكن عامدًا أن أصل إلى تلك الوريقات..

ربقات احتوت على حوارات تقترب من أن تكون لامرأة دارسة للفلسفة وعلوم الدين والحياة.. كيف توصلت ندى لهذا المستوى الفكري؟ لم أتخيل أن تكون زوجتي بمثل هذة الصفات ولم أشعر بها سوى بعد أن بدأت تتلاشى من حياتي.. تلك الروح الهائمة الرقيقة التي كانت بيننا تحادث نفسها وبخرين لم تراهم أو تعرف ملامحهم عبر شاشة الكمبيوتر، ولم أدع لها يومًا مجالًا لتتحدث إليَّ.. لتعبر عن رأيها لم أدعها تفكر أن تصبح شيئًا غير أن تكون زوجتي وأُمَ ابنتيَّ وفي خدمتنا ولراحتنا فقط.. لم أسمح لها باستكمال دراستها واختلاطها بالعالم الخارجي.. كم كنت أنانيًا، كنت دائمًا أوجهها أو أجعلها مستمعة فقط، في حين كنت لا أملّ من سرد القصص الخاصة بأصدقائي أو إنجازاتي.. أو أعمالي ونجاحاتي.. كيف تفوقت على أصدقائي بالدراسة سابقًا وكيف أتفوق على زملائي بالعمل الآن.. كيف كانوا يستشيرونني دائمًا كوني الأفضل والأرجح عقلًا والأكثر تميُّزًا دائمًا في كل شيء.. وإذا مللت أنا من حكايا العمل توجهت بالذاكرة إلى طفولتي ونشأتي وأسرتي وكيف تعديت الآلام والمشاكل بفضل فطنتي ونبوغي المبكر والمتميز عن أقراني وقتها.. كانت تسمعني وتثني عليَّ وتبدي اندهاشها وإعجابها

بمغامراتي التي كررتها عليها كثيرًا ولم تمل.. ولم تشكُ منّي بل كانت كثيرًا ما تندهش وتطلب منّي تفسيرًا لموقف ما أحكيه لها لم تكن تشعرني بأنني أصبحت مملًا أو فارغًا لا يوجد لدي ما يشغلني سوى اجترار الذكريات وبناء مجد واهم لي من خلالها أتعايش معه متفاخرًا به معتزا بنفسي..

كنت أرى في عينها مرارة ودموعًا مختبئة وراء ابتسامة رضا مصطنعة أو لعلها كانت ابتسامة استسلام لواقع لم تجد له بديلًا سوى ما أوجدته لنفسها.. تلك المرارة كانت تشفي ذكورتي المريضة بحُبِّ الأنا.. لم أفكر أن أكون أنا صديقها وحبيبها.. أن أكون لها بحب لا بفرض كياني كزوج فقط.. أن أحتويها .. لم أكن أعلم أني أدفعها للصمت نهائيًا، دفعتها له لتنجو بروحها منّي ومن عالم الماديات للأبد.. لم أكن أعلم أني سيأتي عليَّ يومٌ لن أراها ولن أحكي لها ولن تسمعني مطلقًا.. وبدلًا من أن أنصت لها أو أخرجها من صمتها ذهبت إلى غيرها.. غيرها كانت هي من تتحدث وإن أنصت لها.. كانت تأمر وأنا أنفِّذ لها.. كانت ليلى العكس لندى في كل شيء.. وأنا أحببت كلتهما بنفس القوة.. لم أستطع الاستغناء عن إحداهما..

لا.. لن يتلاشى وجودك بيننا أبدًا ستظلى حبيبتى وام بناتى ماحييت منارة لنا جميعًا قلب يسع الكون بأكمله بحبه ويفيض .ارجوكى حبيبتى كونى لنا كونى معنا نحن من نحتاجك.. اعيدى لنا البسمه اعيدى لنا النور اعيديه إلى الكون كله.. ارجوكى ابقى ابقى لبناتك، ابقى لكون يحتاج وجودك ولو بدونى سأتركك لعالمك.. فأنا لا أستحقك.

" تغريـدة عشـق "

لا أعلم ما الذي حدث لي بعد أن خرجت من مسجد السيدة نفيسة.. كل ما أتذكره هو أن راضية لم تكن موجودة. أن أم الرضا وهمٌ، سرابٌ، خيالٌ !

مع من كنت أتحاور!

لمن كنت ألجأ وأبكي وأشكو!

مع من كنت أحكي عن حبيب لم أرَه وأعايشه في كل أنفاسي!

من أين أتيت أنا بمسبحة أم الرضا !!

هى معي وفي خلوتي وفي يدي كل لحظة..

من أين أتيت بها إذًا ؟

وأنتَ يا من كنت أذهب إليها لأحكي لها عنك..

وكانت تعلمك جيدًا ولا تخبرني.

انت من حفظتنى من اغتصاب مجدى

أنت من حفظتني من غدر شريف

انت من صبرتني وقت أن خانني فريد

أنت.. من نجيتني من حادث كان نهاية حياتي .

أصبحت أسمع وأرى كل من حولي ولا أريد التحدث.. أراهم يبكون رقدتي طريحة الفراش.. يبكون حالي وهذياني، معذورون لا يعرفون أنك معي وأحادثك، فهم لا يرونك مثلي، غُشيَت أبصارهم بزهو الدنيا وأضوائها، لم يصنتوا لصوتٍ حنون وسط الضوضاء.. اعتادت آذانهم الضجيج قلَّما يتذوقون موسيقاك .

أغشى أبصارهَم القبح فلم يروا نور بهاك، نور مصدره من الداخل، من الرضا، من اليقين بأنك أنت النور ولا سواك.

لم أعد أعرف بعد ماذا يجذبكم أيها الرفاق إلى هذا العالم الذي تبغونه من بقائكم بمحيطٍ امتلأ عن آخره بروث الأخلاق وانعدام الضمائر والقلوب الميتة.. مابالكم تلهثون وراء الماديات؟ أيها سوف تحيوا؟ أمنها سترزقون البقاء؟ وما السر وراء سعيكم إلى الخلود؟ من أجل الحياة تتصارعون.. تلهثون وراء السُلطَة والمال والنساء والشهوات.. ضاقت الأرض بي من كل إنسان يركض وراء شهوته، تبًّا لكم جميعًا سأرحل وأترككم.. هي لكم استمتعوا بنارها ومُرِها وعسلها هي لكم أفشوا البغض والقبح فيها.

سأرحل إلى سمائي التي أسعى إليها، باتت سمائي حُبلى بأحلام لن أُجهضها.. ظللت عمري أسعى وراء سراب ووهم.. أعوام أمضيتها خلف

الكلمات والقصائد والمشكلات والأبناء أسعى إلى الوصول إلى مبغاي من تلك الحياة..

لم تعد لي.. لم أعد أحتمل البقاء بها.. سأستسلم لانسحاب روحي منها، لن أرضى بديلًا عن بقائي بجوار من عشقت وحلمت وتمنيت أن أكون بجواره.

هناك.. سألقاه..

هناك سأعرف ملامحه وأنعم برؤى وجهه..

لن أعدّ اتأمله طيفًا وسرابًا وهلامًا..

سأراه وتكتحل عيني بنوره..

هو الغائب الحاضر..

هوالروح التي تلازمني..

الحبيب البعيد القريب

سأبوح له بمكنون قلبي وهو به أعلم..

سأعزف له لحن قصائد غزلتها لأجله..

سأنعم بقربه لم أعد أحتاج لسواه..

لم يعد غيره يغنيني عنه..

ستُحلِق روح طالما حلَّقت معه وأنا لا أدري.. ستحلِّق روحي معه، كان معي وأفتقده.. كان يدعوني ولا أجيبه.. كان كطيفي وكنت أبحث عنه في البشر.. وما هو ببشرٍ ولا بملاكٍ ولا وصف له يوفيه

سأرحل..

ستلتقي روحانا في مكانٍ واحدٍ.. ستعود الروح إلى مستقرها.. حيث نعيم الروح والنفس..

لمن غردت روحي وتمنيت أن تصله ترانيمي الخاصة.. سأرحل

له فقط كانت ترانيم عشقي.. فقط هو من يعرفها ولا سواه..

سأرحل وله فقط تغريدتي.. وهبتني الحياة..

وحتى تقبلني جوارك سأحيا لحظاتي لِأهبها لك

كـ " تغريدة عشق " .

يومًا ما.. سيأخذك قلبك إلى محبوبك

يومًا ما.. ستهتدي روحك إليه

فلا تستسلم في غيابات الألم الحزين

ولتعلم أنه..

يومًا ما.. سيكون هذا الألم هو الدواء

جلال الدين الرومي.

البـداية ""

تغريدة شكـر..

بحروف مُحبة.. تقبَّلها يا من كنتَ سببًا، عامدًا أو دون قصد في إثراء ذائقتي الأدبية مشجعًا فتحمست لمدحك، أو محطمًا عامدًا فضاعفت من عزيمتي على قبول التحدي .

شكرٌ واجبٌ للأساتذة الأفاضل

- الأستاذ الناقد المسرحي: محمد الروبي.. تقبَّل احترامي وشكري بحروفٍ متواضعة لا تسمو لمكانتك.
- الدكتورة الأديبة : إيمان الدواخلي.. دمتِ غالية وعالية القدر والمقام صديقة صدوقة .

إليكما محبتي - زادكما الله من فضله عِلما ورِفعة ومحبة..

شكر خاص لـ

(الفقير بن الملك " حسين خطاب ") على ما أمدني به من فيض روحه ومعرفته قدر ما استطاع وقدر ما احتجتُ.

شكر خاص - " إن استطعت أن أعدِّد أسماء لفعلت "لكل أصدقاء العالم الموازي - كل من تابعني بحرفٍ أو قولٍ أو نقدٍ - كنتَ سببًا لاستمرار قلمي وحرفي.. أعدكم بقدر محبتكم أن أكون عند حُسن ظنكم بي..

دمتم جميعًا بحب .

بشبيشاية

تغريدة عشق

لئن يُصبِح هُناكَ من يكُن عينيكَ اللتين بهما ترى
ونبضكَ الذي به تحيا، وروحكَ التي تعلو وتسمو..
تختلف الدنيا من حَولِكَ.. أصبحتُ أرى بعينيه وأحيا
بقلبه، تُرافقني رَوحُه بكل لحظة ومكان.

هالة البشبيشي

ISBN 9789776436848